

أعلام حرب

٩٧

الشرف في الإسلام

أحمد بن محمد بن أبي القاسم

مقدم: محمد بن عبد الله بن محمد

الطبعة الأولى
الطبعة الثانية
الطبعة الثالثة

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسوي

الإسكندرية

أعلام العرب

٩٧

الشَّرفُ الأَبَدِيُّ

أشهر جغرافيين العرب والإسلام

بقلم: محمد عبد الغني حسن

الهيئة العامة للتأليف والنشر

١٩٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة لربها

هل نال الادريسي الجغرافي العربي الشهير — حقه في المكتبة العربية بالدراستين اللتين كتبهما عنه الدكتور حسين مؤنس ، والأستاذ عبد الله كنون ؟

وهل ظفر الادريسي ببعض الحق الذي وجب له في أعناقنا — نحن العرب — بهذه الأشارات العابرة السريعة في مقال هنا أو بحث هناك . بدلا من بذل الجهود في تحقيق كتابه العظيم في الجغرافية ، وخرائظه الدقيقة في وصف الأرض ، ومصنفاته الأخرى في النبات والصيدلة والأدوية ؟

الواقع أننا أغفلنا الادريسي منذ وفاته في القرن السادس الهجري ، واسقطه مؤلفو التراجم من حسابهم ، الا فئة قليلة دانت بالوفاء له ، من أمثال العماد الأصبهاني صاحب « خريدة القصر » ، والصفدي صاحب « الوافي بالوفيات » وابن خلدون

في مقدمته وحاجي خليفة صاحب « كشف الظنون » . وحتى هؤلاء الأوفياء لم يوفوا الادريسي حقه بالترجمة الكاملة والسيرة الشاملة والحياة المفصلة ... ولكنهم ذكروا من أخباره النزرة مالا ينهض برسم صورة دقيقة لهذا الرجل الذي كانت الدقة مزيته في شأنه كله ، حتى وهو ضيف على بلاط الملك روجر الثاني بمدينة بلرم — أو بلارمة كما يسميها الرحالة ابن جبير — في صقلية ، يتلقى المعارف من أفواه الرسل الثقات الذين أوفدهم روجر الى بقاع مختلفة من الأرض يجمعون المادة العلمية ، والبيانات الجغرافية لكتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » الذي ألفه الادريسي العالم العربي المسلم ، برسم الملك روجر الثاني ملك صقلية المسيحي بعد انتزاعها من يد العرب ، فكان خير مثال للتعاون المثمر .

والواقع أن استدعاء روجر الثاني للادريسي ليؤلف له كتابا وثيقا في الجغرافية ، وليصنع له خريطة صحيحة مضبوطة للأرض هو أكبر شهادة على ما كان للعرب من فوق فكري في ذلك الزمان .

واذا كانت أوروبا قد أفادت من جغرافية الادريسي ، وجعلت كتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » دليلها لعدة قرون ، ومعلمها حتى فيما يتصل بجغرافيتها هي وبأقاليمها ومدنها ... وإذا كانت أوروبا — ممثلة في علماءها ورجال الاستشراق فيها — تحاول أن ترد دين الادريسي الذي وجب له في أعناقها ، فمن حق

الادريسي علينا — ونحن أهله وقبيله — ومن واجبتنا نحوه ،
أن نجلو من جوانبه المضيئة التي حجبها الزمان ما نحن أولى
من غيرنا بفعله ، وأجدر بالنهوض به ...

وفي هذا السبيل ، ومن أجل هذه الغاية كان هذا الكتاب
الذي التقت فيه — مرة أخرى بعد كتابي عن جرجى زيدان —
رغبتى ورغبة « الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر » ، فكان
لقاء على الوفاء والانصاف ، والتقاء على هدف أرجو أن يكون
فيه للقارئ خير كثير ، وأن يكون فيه للشريف الادريسي بعض
التكريم والتقدير . وبالله التوفيق .

محمد عبد الغنى حسن

القاهرة سنة ١٩٧١

موجز حياة

● على الرغم من الاهتمام الكبير الذى أبداه الباحثون نحو الشريف الادريسي ، وعلى الرغم مما طبع وترجم من كتابه «نزهة المشتاق ، فى اختراق الآفاق» ، وعلى الرغم من الدراسات الكثيرة لنواح متعددة من كتابه الكبير ، ومشاركاته فى الجغرافية وعمل الخرائط — فان حياته وتفاصيلاتها ومعلوماتنا عنه لاتزال قليلة جدا ، وغير متكافئة مع القيمة العلمية لهذا الرجل . وقد يكون اغفال المؤرخين العرب والمسلمين له — لأسباب تجدها فى موضع آخر من هذا الكتاب — سببا فى ضالة البيانات والمعلومات التى وصلت الينا عن حياته .

وأول ما تتجه اليه هنا هو اسمه . وقد أورده المؤرخ الصفدى فى كتاب « الوافى بالوفيات » هكذا : محمد بن محمد ابن عبد الله بن ادريس بن يحيى بن على بن حمود بن ميمون بن

أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن ادريس بن الحسن . بن الحسن بن علي بن أبي طالب . فهو اذن حسنى علوى . ومن هنا جاء تلقيبه «بالشريف» ، كما جاء تلقيبه «بالادريسي» نسبة الى جده الأعلى ادريس (١) . وتصادفنا في مقدمة ابن خلدون نسبته « بالحمودى » ، وهى نسبة لم نجدها عند غير ابن خلدون ، وهى نسبة الى جده (حمود) الذى تنسب اليه دولة بنى حمود بالأندلس الذين حكموا مالقة سنة ٤٠٧ هـ ، وحكموا الجزيرة سنة ٤٣١ هـ ، وهم ملوك الطوائف الإدارية فى العهد الأول . وقد لقب الادريسي أيضا «بالشريف الصقلى» نسبة الى صقلية التى أقام فيها منذ أن استدعاه الملك روجر الثانى اليه . وكان قد توهم مرة أن الادريسي « نوبى » ، واستمرت تسميته باسم النوبى زمنا غير قصير . وقد جاء الخطأ فى هذه التسمية من العالمين المارونيين : حنا الحصري وجبريل الصهيونى اللذين ترجما كتابه الى اللاتينية سنة ١٦١٩ تحت عنوان (جغرافية النوبى) ، لأنه وهو يتحدث عن النيل فى « نزهة المشتاق » قرأ المترجمان لفظة « أرضنا » بدلا من « أرضها » أى أرض النوبة ، فتوهم الرجلان أن الرجل نوبى الأصل ، ووضعوا اسم «النوبى» على عنوان كتابه . أما تسمية الشريف الادريسي «بإبن الثيرى» — كما جاء فى خريدة العمد الأصبهاني — فقد أوردها «زيولد»

(١) هو ادريس الاول بن عبد الله بن الحسن الذى أسس دولة الادارسة بالمغرب ومات مسموما سنة ١٧٧ هـ بحريض من الخليفة هارون الرشيد .

في ترجمته للأدريسى في دائرة المعارف الإسلامية وقال انه لا يعلم عنها شيئا ، ولكن الدكتور حسين مؤنس صحح أخيرا هذا الخطأ الذي يرجع الى اضطراب في أوراق مخطوطة الخريدة فدخلت ترجمة ابن الثيري في ترجمة الأدريسى (١) . أما تسمية الأدريسى « بالقرطبي » فقد يكون صحيحا لأن الرجل قد دخل قرطبة وأقام بها أو عرفها معرفة وثيقة ، وتحدث عنها في كتابه المشهور .

* ولد الأدريسى بمدينة « سبتة » المغربية سنة ٤٩٣ هـ ١١٠٠ م ، ولا يعلم شيء عن أحواله في تلك المدينة ولا عن نشأته فيها ، ولا عن الشيوخ الذين تلقى عنهم . ولكن المعروف أنه رحل الى قرطبة وتلقى العلم فيها حيث كانت من أكبر مراكز الثقافة العربية الإسلامية . وقد أتاح له مقامه بقرطبة أن يجعل منها نقطة انطلاق لجولات كثيرة في الأندلس ، كما أتاح له إقامته في « سبتة » أن يجعل منها رحلاته الى بلاد المغرب التي يصفها وصف الخير . على أن حديثه عن لشبونة وسواحل فرنسا وإنجلترا الجنوبية يحمل على الاعتقاد بأنه زار تلك الجهات ، ففى وصفه لحصن المعدن قبالة لشبونة يقول : (وقد رأيناه عيانا . (٢)) ورحلات الأدريسى الى غير المغرب والأندلس وصقلية

(١) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد المجلدان ٨ ، ٩ ، ١٠ ص ٢٨٢

(٢) الحلل السندسية : الأمير شكيب أرسلان ج ١ ص ٩٢ . وفيه نص العسم الخاص بالأندلس من كتاب ترجمة المشتاق للأدريسى .

تحتاج الى كثير من التحقيق . فقد قيل انه زار آسيا الصغرى ، كما قيل انه زار فرنسا وانجلترا . أما رحلته الى آسيا الصغرى فقد أشار اليها كراتشكوفسكى وذكر أنها كانت سنة ٥١٠ هـ — سنة ١١١٦ م حين لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره . وهي كلها استنتاجات لم تؤيد بعد بالأدلة القاطعة . أما أوصافه لبلاد آسيا وافريقية غير ما ذكرناه فلم تكن نتيجة أسفار قام بها ولكن نتيجة قراءاته للكتب التى ذكر بعضها فى مقدمته لكتاب « نزهة المشتاق » .

* وفى حدود سنة ٥٣٣ هـ — سنة ١١٣٨ م (١) دخل الادريسي صقلية بدعوة من الملك روجر الثانى . وفى فصل من كتابنا هذا ذكر لظروف هذه الدعوة وكيفيتها . وفى خلال اقامته قريبا من بلاط هذا الملك الذى كان يشجع العلم والعلماء ، صنع الكرة الأرضية الفضية ، والخرائط والمصورات ، وألف كتابه « نزهة المشتاق » الذى كان بتكليف من روجر حتى يسمى هذا بالكتاب الروجارى ، أو كتاب روجار ، نسبة الى الملك روجر الذى كتب له وألف برسمه .

وفى فصل خاص من كتابنا هذا حديث عن كتاب « نزهة

(١) ذكر الدكتور جمال زكريا قاسم ان الادريسي أقام فى صقلية فى الفترة من سنة ١١٠٠ م — ١١٦٦ م ، وهذا وهم كبير لان هذين التاريخين هما ميلاد الادريسي ووفاته . أما دخوله صقلية فكان فى سنة ١١٣٨ أى بعد ثمانية وثلاثين عاما من مولده .

المشتاق» وطريقة تأليف مادته ، وطبعاته العربية منذ أقدم طبعاته في القرن السادس عشر الميلادي ، وترجماته الى عدد من اللغات الأجنبية ، وتقدير العلماء له وآرائهم المنصفة فيه . وقد انتهى الأدريسى من تأليف كتابه هذا في سنة ٥٤٨ هـ — سنة ١١٥٤ م. ومعنى هذا أنه أنجزه في خمسة عشر عاما ، وهي فترة غير كثيرة على كتاب جمعت مادته الوافرة عن الأقطار والأصقاع بوساطة رسل أرسلهم روجر والأدريسى لتحصيل المعلومات ، وجمع البيانات ، حتى تكون الأوصاف عن معاينة لا عن نقل عن الكتب . ويشير الأدريسى نفسه في مقدمة «نزهة المشتاق» الى تاريخ الانتهاء منه .

✽ وقد بقي الأدريسى مقربا من الملك روجر الثاني منذ اتصاله به سنة ١١٣٨ م الى وفاة الملك سنة ١١٥٤ م نتيجة لمرض عضال كان ميثوسا من شفائه منه ، فلما أعقبه خليفته وولده « غليالم » الأول خشي الأدريسى أن تتأثر مكاتبه في البلاط ، وصاحبه فترة من القلق . ويبدو أن هذا القلق قد تبدد حينما صنف الأدريسى للملك غليالم الأول كتابا عنوانه « روض الانس ، ونزهة النفس » ، وهو كتاب في الجغرافية كما سنذكره في فصل خاص من كتابنا هذا . ولا ندرى لماذا اختص الأدريسى هذا الخليفة لروجر الثاني بكتاب آخر في الجغرافية غير كتابه الكبير نزهة المشتاق الذي ألفه برسم والده وبتكليف منه ؟ قد

يكون هذا من باب التقرب الى الحاكم الجديد ، ولكن يظهر انه لم يطل مقامه في صقلية بعد وفاة راعيه روجر الثانى . وان كانت معلوماتنا في هذا الصدد غير متيقنة ولا متبينة . وعلى كل حال فالراجح أنه غادر صقلية الى سبتة (١) مسقط رأسه بعد بضع سنوات من وفاة روجر الثانى ، وظل في سبتة في ظروف لا نعلم عنها شيئا الى أن توفي سنة سنة ٥٦٠ هـ — سنة ١١٦٥ م ، لا سنة ١١٦٠ م كما جاء خطأ في كتاب « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » للمستشرق الروسى أغناطيوس كراتشوفسكى . وقد حققنا ميلاد الادريسى ووفاته — مكانا وتاريخا — فى فصل خاص من كتابنا هذا .

● وعلى الرغم من المكانة التى كان يتمتع بها الادريسى في مجال العلوم الجغرافية ورسم الخرائط والرحلات ، فقد كان للرجل نواح أخرى تؤكد تعدد ألوان ثقافته وميوله . فقد كان له اهتمام بالصيدلة والنباتات والطب ، وان كان لم يبلغ فيها ما بلغه في الميدان الجغرافى . وقد تحدثنا في فصل آخر من كتابنا هذا عن مؤلفات الادريسى الأخرى فى غير ذلك الميدان الذى اشتهر به .

وليس غريبا أن يجمع الادريسى الى ذلك ذوقا فى الأدب ،

(١) هناك رأى بأن الادريسى لم يبرح صقلية الى سبتة ، وأنه توفي في صقلية . انظر الفصل الذى عنوانه « تحقيق الميلاد والوفاة » من كتابنا هذا .

وظرفا في الحديث ، وأصالة طبع في الشعر . وقد روى له صلاح الدين الصفدى المؤرخ الأديب المشهور والمتوفى سنة ٧٦٤ هـ . بعض نماذج من شعره . وعلق عليها بقوله في نهاية روايته لها : (هذا شعر جيد) . وهذه الشهادة من أديب شاعر متذوق نقادة كالصفدى ، لها قيمتها في تقدير الاديسى في ناحية الأدب والشعر الذى كنا نود لو تسعفنا الحظوظ بالاطلاع على قدر كبير منه لو كان له فى الوجود وجود ..

● وللاديسى غير كتابه المشهور « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » مؤلفات أخرى شارك بها فى ميدان علم الجغرافية أيضا ، والنبات ، والصيدلة ، والذى نعرفه منها : « روض الأنس ، ونزهة النفس » الذى يعرف باسم الممالك والمسالك ، وكتاب « روض الفرج ، ونزهة المهج » وهو تلخيص لكتاب روض الأنس السابق ذكره ، وقيل انه مختصر لكتابه « نزهة المشتاق » ، وكتاب « الجامع لصفات أشتات النبات » ومنه نسخة مصورة فى معهد المخطوطات بالجامعة العربية عن مخطوطة فى مكتبة الفاتح باستنبول . وللاديسى كتاب آخر فى « الأدوية المفردة » ذكره صاحب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » ويظهر أنه مفقود . وقد خصصنا هذه المؤلفات بفصلين من كتابنا هذا .

صقلية في عهد الإدريسي

ان قصة دخول العرب والاسلام في صقلية هي قصة من أروع قصص البطولة والتصميم والادارة الحازمة . ولن نتعرض هنا لتفاصيل فتح الجزيرة ، ولكننا نوجز القول في تملك العرب لصقلية وتماام استيلائهم عليها سنة ٢٦٥ هـ — سنة ٨٧٨ م ، وخضوع الجزيرة كلها لهم ٢٦٤ عاما ، الى أن استولى عليها النورمان سنة ١٠٩٠م — ٤٨٣ هـ بعد عمليات كثيرة ضد العرب . وكانت قلة عدد الجنود النورمانيين وضعف أسطولهم أهم العوامل التي أطالت فترة الفتح النورماني . ولا حاجة بنا هنا الى التحدث عن حكم العرب لصقلية قرابة قرنين ونصف قرن من الزمان ، ويكفي الرجوع الى ما قاله المستشرقون والأوربيون أنفسهم عن عدالة هذا الحكم وازدهار الجزيرة تحت لوائه . ومن هؤلاء الشهود العدول جوستاف لوبون ، ولويجي رينالدي ، ودييل ، وسيديو ، وآماري ، وتوفنر .

ولقد دخلت صقلية باستيلاء النورمان عليها سنة ١٠٩٠ م في ظل عهد جديد ، كان الحكم فيه من النورمان ، وأخذت مقاليد الأمور تنتقل من يد العرب المغلوبين الى يد الفاتحين الغالبين . وحكم صقلية في العهد النورماني أربعة من الملوك ، هم روجر الأول منتزع الجزيرة من يد العرب ، وابنه روجر الثاني ،

وغليالم الأول وغليالم الثانى الذى انتهى حكمه سنة ٥٨٦ هـ .
ولقد قضت الأقدار أن يدخل الشريف الأدريسى صقلية
سنة ٥٣٣ هـ — سنة ١١٣٨ م ، أى بعد ما يقرب من أربعين
سنة من انتزاعها من يد العرب وسقوطها فى يد النورمان . وقد
كان ملكها فى الوقت الذى دخلها فيه الأدريسى الملك روجر الثانى
ابن الملك روجر الأول . ولنا مع هذا الملك حديث نرى أن نجمه
فى فصل خاص نظرا لعلاقته بالأدريسى من ناحية ولعلاقته بتأليف
كتاب « نزهة المشتاق » من ناحية أخرى .

ولقد اتخذ الحكام النورمانديون موقفا يتسم بالتسامح
الدينى مع رعاياهم المسلمين الذين نزع الأقدار السلطان من
أيديهم ، فتركوا للمسلمين حرية أداء شعائهم الدينية ، ولم
يتعرضوا لهم بسبب تمسكهم بدينهم . ويروى بعض المؤرخين
أنهم كانوا لا يأذنون للمسلم أن يرتد عن دينه الاسلام ويدخل
فى دين الحاكم المسيحى الجديد .

وعلى الرغم مما بدا من الفاتحين النورمانديين من ملاينة
العرب والمسلمين ومحاستهم فقد انقسم أهل الجزيرة العرب ازاء
هذه الحالة الطارئة عليهم وهذه الهزيمة المقدرة لهم الى قسمين :
فأثر جماعة كبيرة منهم أن يرحلوا عن هذه الأرض الاسلامية التى
وقعت فى قبضة غير المسلمين ، وأن يغادروها الى أرض اسلامية
قريبة منهم لا تكلفهم مؤونة فى السفر ولا مشقة فى الرحلة ،
فاختاروا بر العدو من الشياطين الأفريقى ورحلوا اليه على

السفن الكثيرة التي كانت لهم ، والتي كانت تزدهم بها شواطئ صقلية . وأخلد الكثيرون من بقية أهل الجزيرة المسلمين الى البقاء فيها حتى يقضى الله أمره ، ورضوا أن لا يرحوا الأرض التي كانت لهم ولآبائهم حوالي ٢٥٠ عاما ، وتوسموا في حكم النورمان المسلمين رعاية لهم ، وحفاظا عليهم ، وأمنة في جوارهم وتحت لوأئهم ..

وبلغ من محاسنة ملوك النورمان الفاتحين صقلية لأهلها من العرب أنهم فوق اصفائهم الحرية الدينية على المسلمين تركوا لهم حرية التمتع بشروائهم ومتاجرهم ومصانعهم . فلم يصادروهم في شيء منها ، بل شجعوهم على استثمارها وزيادة التحسين فيها حتى لا يكون هناك فارق بين العهد الاسلامي العربي والعهد النورماني . وبلغ من محاسنة ملوك صقلية من النورمان أنهم تعلموا العربية كتابة وقراءة ، وتذوقوها ، وكانوا يطربون لسماع شعرها وأدبها . ولم يقضوا على العربية كما كان يظن من الغالبين ، ولكنهم تركوا لها مكان الصدارة في الاستعمال والدواوين ، حتى لقد كانت براءات ملوكهم تكتب بالعربية واللاتينية واليونانية . وكانت العربية واحدة من اللغات التي تسلك بها نقودهم ، وعليها شارتا الاسلام والنصرانية . وأعجب من هذا أن عبارة « لا اله الا الله محمد رسول الله » كانت توضع على النقود المضروبة في العهد النورماندي ، وبقي الأمراء

الذى خلفوا النورمانيين يضربون نفوذهم بالعربية زمنا غير قليل ، وكانت علامة الملك غليسام بالعربية : « الحمد لله حق حمده » ، كما يقول الرحالة ابن جبير .

ولم يكن العرب والمسلمون في عصر الفتح النورمانى منبوذين أو مبغدين عن جناب الحكام وكنفهم ، بل كانوا في موطن القرابة ، وموضع الكرامة والرعاية ، فظل كثير من حكام المسلمين وقوادهم في مناصبهم كما كان عليه العهد في أيام الحكم العربى . وظلت موارد التجارة في يد العرب ، كما كان كبار رجال الأعمال في الجزيرة منهم .

والواقع أن معاملة الفاتحين النورمان لأهل المدن من صقلية كانت غير معاملتهم للفلاحين الذين يكدهون في الأرض . فقد حدث في « قطانية » أن روجر حين تغلب عليها استرق أهلها المسلمين وجعلها اقطاعا لرجل من رجال الدين المسيحى . ومن هنا جاءت الفروق الصارخة بين حرية أهل المدن من المسلمين ، وعبودية الفلاحين منهم . ولكن بعض مظاهر الحياة الاسلامية ظلت على عهدا قديما في خلال الحكم النورمانى ، وبقي للمسلمين في الجزيرة الشيخ والحاكم والقاضى ، والقائد ، وكان المسلمون — وخاصة في الجمع والأعياد — يخرجون الى المصلى ومعهم صاحب أحكامهم .

وإذا كانت الحرية مختلفة التطبيق بين أهل المدن وأهل
الفلاحة من المسلمين الخاضعين لحكم النورمان ، فإن هنالك
في روايات مختلفة لمؤرخ واحد أو رحالة واحد مسلم كابن جبير
ما قد يشعر بأن هناك تباينا أو تناقضا فيما يقوله هذا الرحالة
في رحلته الى صقلية بعد غزو النورمان لها بقراءة تسعين عاما .
فقد ذكر ابن جبير بأنه شاهد في بعض مواطن الجزيرة قوما
يخافتون في أداء العبادة (١) ولا يستطيعون الجهر بأنهم مسلمون ،
على حين أنه ذكر في موضع آخر من رحلته أن المسلمين في
« بلرم » يعمرن أكثر مساجدهم ، ويطعمون الصلاة بأذان
مسموع (٢) . فلا معنى إذن للمخافة بالعبادة . والحق أنه لم
يكن هناك تناقض في كلام ابن جبير ، فالمسلمون القريبون من
مكان الملك وحمايته يتمتعون بالحرية التامة ، وكذلك المسلمون
حين يكثر عددهم في مكان أو مدينة . أما حين تبعد حماسة
الملك ، وحين يصبح المسلمون قلة قليلة في بعض الأماكن مثل
« مسينة » فهم أقلية يلجأون الى الحذر والخوف مما يثير عليهم
سخط الأكثرية من المسيحيين .

ولقد كانت الحضارة العربية الاسلامية غالبة على جزيرة
صقلية في ظل الحكم النورمانى ، وفي ظل هذه الحضارة ألقي

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٣١ ، ٣١٦ - تحقيق حسين نصار .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٣٢٠ ، وص ٣٢٢ .

روجر الأول ومن جاءوا بعده أنفسهم مغمورين بطابع عربى غالب
لهم يستطيعوا الفكاك منه . والواقع أنهم بهروا بهذه الحضارة
فأحبوا أن يتفياوا ظلالها ، وأن يعيشوا فى كنف نفوذها وسلطانها
الروحى ، على حين كانت عصا السلطان فى أيديهم . وغالى ملوك
صقلية من النورمان فى التشبث بحضارة العرب فى صقلية والتعلق
بها ، وخاصة الملك روجر الثانى الذى جعل بلاطه شبيها ببلاط
الأمراء المسلمين . فاستكثر — كما يقول ابن الأثير المؤرخ — (١)
من الجنائب والحجاب والسلاحية والجاندارية وغيرها ، وخالف
عادة الفرنج فانهم لا يعرفون شيئا منها . وبرزت فى عهد الحكم
النورمانى الجديد وفى ظل الادارة الجديدة أنواع من الدواوين
التي هى امتداد للديوان العربى الاسلامى ، فكان هناك ديوان
المظالم الذى اتخذته الملك عن نظام الدواوين الاسلامية . وكان
أصحاب المظالم يرفعون شكواهم اليه فيجدون النصفة ولو من
ابن الملك نفسه . وكان هذا الديوان مظهر من مظاهر العدالة
وتطبيقاتها السليمة فى بلد انسلخ من الحكم العربى ليقع فى
قبضة حكم مسيحي جديد . وكان هناك ديوان الطراز الذى
اشتهر بصنع أردية جميلة من الحرير ، وكانت تزخر منتجاته
بزخارف عربية اسلامية . وكان الملك روجر سعيدا بأن يضع

(١) الكامل : ابن الاثير ج ٨ ص ١٥٩ .

على كتفيه عباءة من صنع هذا الديوان . أما ديوان التحقيق المعمور ، فكان يهتم بالأرض الزراعية وتوابعها من الأرقاء . ولم يكن من الغريب أن يسود التسامح أرجاء صقلية كلها لأن ملوكها من النورمان كانوا يحبون الهدوء والتسامح ، وإن كانت قد قامت في العهد النورمانى بعض حوادث الشغب التى راح ضحيتها عدد من المسلمين . ولكنها حوادث لم يكن بد منها في بلد له ظروفه الخاصة .

أما الحركة الثقافية في صقلية خلال الحكم النورمانى فقد بدأت بداية نبشر بالخير . ولقد شهد الشريف الأدريسى نفسه كيف كان الملك روجر الثانى ذا معرفة بالعلوم الرياضية والعملية ، وأنه كان له في مخترعات العلم مشاركات وابتداعات غريبة . وشجع الملك العالم حركة العلم في الجزيرة فأخذ يستحضر اليها الكتب العربية واليونانية مهما كانت أثمانها . ووجد العلماء في كنف الملك حماية ورعاية وتشجيعا . وكان هو لا يسمع بعالم — عربى أو غير عربى — إلا استقدمه الى جنابه وأفاد من علمه . وكثر الأطباء والمنجمون في عهده فأجزل لهم العطايا وشجعهم على أبحاثهم . ومن هؤلاء العلماء العرب كان «الشريف الأدريسى» الذى استقدمه الملك روجر الثانى وأدناه منه حتى كان من اسهامه في علم الجغرافية وعمل الخرائط ما سنوضحه في فصل مقبل .

الملك روجر الصقلي

كان أول ملوك النورمان الذين انتزعوا صقلية من يد العرب القرن الخامس الهجري الملك رجار ، أو روجر الأول ، ثم جاءه ابنه روجر الثاني الذي استقدم الشريف الأدريسى الى صقلية ، ويعيننا الحديث عن هذا الملك المسيحي الذي حاسن به الذين أصبحوا رعاياه المسلمين ولاطفهم الى أبعد الحدود. جمع المصادر العربية وغير العربية على الثناء على هذا الرجل. صدثنا الشريف الأدريسى نفسه عن الملك روجر في كتابه نزهة المشتاق « قائلا : (ولما صار أمرها — أي صقلية — ، واستقر بها سرير ملكه ، نشر سيرة العدل في أهلها ، رهم على أديانهم وشرائعهم ، وأمنهم في أنفسهم وأموالهم ، بليهم وذرائعهم) . ولم يسلم روجر الثاني من نقد نظامه قطاعي الذي أحدث انقلابا في حياة أهل الجزيرة من العرب مسلمين . ويؤكد لنا هذا ما قاله المؤرخ ابن الأثير عنه في كتابه

الكامل : (وأسكنها الروم والفرنيج مع المسلمين ، ولم يترك لأحد من أهلها حماما ولا دكانا ولا طاحونا ولا فرنا) (١) وقد يكون هذا حدث في الريف لا في المدن التي ضمنت فيها حرية المسلمين .

وقد ترك لنا الأديب المؤرخ صلاح الدين الصفدى فى كتابه العظيم « الوافى بالوفيات » صورة جميلة للملك روجر الثانى الصقلى لا بأس من إيرادها هنا حيث يقول فى ترجمته : (رجار ملك الفرنج صاحب صقلية هلك بالخوانيق سنة ثمان وأربعين وخمسائة . ويقال فيه : أجار ، بهمة بدل الراء وجيم مشددة ، وبعد الألف راء . كان فيه محبة لأهل العلوم الفلسفية . وهو الذى استقدم اليه الشريف الأدريسى صاحب كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » من العدو ليصنع له شيئا فى شكل صورة العالم . فلما وصل اليه أكرم نزله ، وبالع فى تعظيمه ، فطلب منه شيئا من المعادن ليصنع منه ما يريد . فحمل اليه من الترسنة الحجر وزن أربعمائة ألف درهم ، فصنع منها دوائر كهية الأفلاك ، وركب بعضها على بعض ، ثم شكلها له على الوضع المخصوص ، فأعجب بها رجار ، ودخل فى ذلك ثلث النضة وأرجح بقليل ، وفضل له ما يقارب الثلاثين ، فتركه له أجازة ، وأضاف لذلك مائة ألف درهم ، ومركبا موسقا كان قد

(١) الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ١٥٩ فى حوادث سنة ٤٨٤ هـ .

جاء اليه من برشلونة بأنواع الأجناس الرومية التي تجلب للملوك ، وسأله المقام عنده قائلاً : ومتى كنت في بلاد المسلمين لاتأمن ملوكهم على نفسك ، ومتى كنت عنسدي أمنت على نفسك ، فأجابه الى ذلك ، ورتب له كفاية لاتكون الا للملوك ، وكان يجيء اليه راكب بغلة فاذا صار عنده يتنحى له عن مجلسه فيأبى ، فيجلسان معا ..) وقد أعجب كراثشكوفسكى بهذا النص المنقول عن « الوافى بالوفيات » للصفدى ، فنقله في كتابه « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » ، كما نقل المرحوم محمد كرد على شطرا منه فى كتابه « الاسلام والحضارة العربية » ح ١ ص ٢٦٨ ، ثم عاد فنقله كاملا فى كتابه « كنوز الأجداد » ص ٣٨٤ وهو يترجم للمؤرخ صلاح الدين الصفدى ترجمة وافية .

وقد بلغ من محاسنة الملك روجر الثانى للمسلمين من رعاياه أنه اتهم من قبل قومه بأنه اعتنق الاسلام ودان به ، فقد كان غريبا من ملك مسيحي متغلب أبوه على العرب فى صقلية أن يتخذ هذا الموقف المسالم الملاين من رعيته العربية المسلمة ، وأن لا يجعل لرؤساء الدين من قومه النصارى سبيلا الى التحكم فى المسلمين والتسلط عليهم . ومن هنا جاءت التهمة بأنه تحول الى الاسلام . وقد ردد تهمة اعتناق روجر الثانى الاسلام أكثر من مؤرخ أجنبى ، حتى أن المؤرخ « كروثر جوردون » وهو يحرر المادة الخاصة بصقلية فى دائرة المعارف الاسلامية أشار الى تسامح روجر مع رعاياه المسلمين قائلاً : (.. بل نعموا

— يعنى المسلمين — أيضا بحماية روجر حماية كاملة . ذلك ان روجر لم يكن متحزبا فى مسيحيته ، ثم انه شجع هؤلاء المسلمين على أن ينموا مواهبهم ، ان لم يكن قد شجعهم على أن ينشروا دينهم . بل لقد اتهم هو نفسه بأنه مسلم . ذلك بأن روجر كان رجلا غير مثقف ، واذ رأى بعينه اللتين لم تظلهما غشواوة التعصب عبقرية العرب العظيمة أبى أن يقتل روح هذه العظيمة ، فمنح المسلمين الحرية التامة فى ممارسة شعائر دينهم ، بل حرم على المسيحيين أن يبشروا بدينهم بين العرب . كما خفف من وطأذ النظام الاقطاعى النورماندى على المسلمين ، وأخذ بنظام الإدارة الاسلامى) . والحمد لله الذى جعل روجر الثانى رجلا غير مثقف ، كما يقول واحد من قومه ! والا لأصلى المسلمين والعرب نارا حامية بثقافته المتعصبة . وقد يكون عدم الثقافة نعمة فى مثل هذه الحالة ! والا فماذا كانت تكون حال الرعايا المسلمين من أهل صقلية لو رزقوا بحاكم غير مسلم ومثقف ومتعصب ؟

والحق أن العرب فى صقلية قد نعموا فى عهد روجر الثانى بحكم عادل متسامح . فلم يشعروا فى أكثر أحوالهم بخوف ولا قلق ، بل كانوا هم والنصارى على قدم المساواة فى المعاملة . ويؤكد المؤرخون أن روجر الثانى أبقى على الموظفين والعمال المسلمين وأبقاهم فى مناصبهم وفى مواقع أعمالهم التى كانوا يمارسونها قبل الفتح النورماندى ، فظلوا يعملون ويستجوبون فى

أمان تحت امرته . ويقال ان معظم تجار بلرم (١) فى أنشاء الحكم
النورمندى كانوا من المسلمين .

وتهمنا هنا شهادة مؤرخ مسلم كبير هو ابن الأثير المتوفى
سنة ٦٣٠ هـ وصاحب كتاب « الكامل » ، فقد كان غير بعيد
العهد من الأحداث التى مرت بالعرب والمسلمين فى صقلية ، فحين
تحدث عن رجار الأول الذى انتزع صقلية من يد العرب أشار
الى أنه لم يترك لأحد من أهلها المسلمين حماما ولا دكانا
ولا طاحونا ، ولكنه حين تحدث عن ولده وخليفته روجر الثانى
قال عنه : (وجعل له ديوان المظالم ترفع اليه شكوى المظلومين
فينصفهم ولو من ولده ، وأكرم المسلمين وقربهم ، ومنع عنهم
الفرنجة فأحبوه) (٢) . والحق أنه لولا هذه الرعاية والحماية
للعرب والمسلمين من روجر الثانى ، ولولا أنه بسط عليهم ظل
أمنه لأصبحت حياتهم فى الجزيرة بعد ضياعها من أيديهم جحيما
لا يطاق . وقريب من شهادة ابن الأثير فى كتابه « الكامل »
شهادة مؤرخ مسلم آخر هو ابن كثير الدمشقى المتوفى سنة
٧٧٤ هـ فى كتابه « البداية والنهاية » فهو يقول فى حوادث سنة
٤٨٤ هـ : (وفيها ملكت الفرنج مدينة صقلية من بلاد المغرب
ومات ملكهم فقام ولده — يعنى روجر الثانى — مقامه فسار

(١) هى بالانجليزية Palermo وهى عاصمة صقلية اليوم وأكبر مدنها

وموانئها .

(٢) الكامل : ابن الأثير ج ٨ ص ١٥٩ .

في الناس سيرة ملوك المسلمين حتى كأنه منهم .. (١) وعبرة حتى كأنه منهم ، توحى لنا بمااتهم به روجر الثاني من اعتناقه الاسلام .

والاشارة من المؤرخ كروتر جوردون الى أن الملك روجر الثاني كان رجلا غير مثقف هي اشارة غريبة الى رجل كان موقفه من العلم والعلماء موضع اعجاب المؤرخين جميعا . فكيف يتأتى لهذا الرجل غير المثقف - في نظر جوردون - أن يحشد في بلاطه العلماء من كل لون ، وأن يمدّهم بكل ما يسهل لهم أسباب البحث ؟ وأن ينفق عليهم الأموال ولا يضمن عليهم بنوع من المعونة لانجاز بحوثهم ؟ وموقفه مع الأدريسى ورواية الأدريسى عنه وعن بلاطه تؤكد لنا هذه العقلية الواعية الحريصة على نشر الثقافة . فقد كان روجر حريصا على مجالسة العلماء والمحادثة معهم فيما يعنيه من أمور العلم والمعرفة . وليس هذا شأن الرجل غير المثقف . فأن الثقافة سلوك قبل أن تكون دراسة منتظمة في مدرسة . وقد يكون روجر الثاني حرم من التثقيف المدرسي المنظم ، ولكنه كان مثقفا بعقليته وذهنيته ومساعيه لنشر المعرفة . ويكفيه شهادة الصفدي له بأنه كان محبا لأهل العلوم الفلسفية . والفلسفة علم لا يحبه العوام غير المثقفين من الملوك والحكام . ويبدو أن روجر الثاني كان من النوع الذي

(١) البداية والنهاية : ابن كثير . ج ١٢ ص ١٢٨ .

يتوقف نفسه بنفسه . على أن تشجيعه للعلم والعلماء لم يقف عند حد العلوم الفلسفية وحدها ، فقد كان يشجع الطب والأطباء ولعل الأدريسى قد صنف كتاب (الأدوية المفردة) برسمه (١) ، كما كان له اهتمامات بالفلك وهوى بالغ له (فوجد في الأدريسى خير معين له على أشباع رغبته من ذلك العلم) كما يقول بالنسبة في كتابه « تاريخ الفكر الأندلسي » .

ويؤكد لنا المستشرق ميلر أن بلاط الملك روجر الثاني كان ملتقى الحضارتين وموئلا للحرية العلمية في القرن الثاني عشر الميلادي ، كما يذكره الدكتور نقولا زيادة في كتابه « رواد الشرق العربي » .

والحق أن الملك روجر الثاني قد لقي من مؤرخي العرب والمسلمين تقديرا عظيما ، وكانت الصورة التي صوره بها الشريف الأدريسى نفسه في كتابه « نزهة المشتاق » والصورة التي صوره بها في إيجاز المؤرخان ابن الأثير وابن كثير ، واللوحة البيانية التي صوره بها الأديب المؤرخ صلاح الدين الصفدي هي المنابع التي استقى منها الباحثون بعد ذلك ما كتبوه عن روجر الثاني ، فنرى المرحوم الشيخ عبد المتعال الصعيدي يصف هذا الملك بأنه كان معجبا بحضارة المسلمين مولعا بثقافتهم،

(١) وإن كان يقال في رواية أخرى أنه ألف برسم ولده غلبايم الأول .

محباً لعدائهم ، حتى انه كان يلبس ملابسهم ، وكان رداؤه
يطرز بحروف عربية .. ووجد الأدريسى من رعاية هذا الملك
المسيحي ما ساعده على نشاطه .

ونرى المرحوم محمد كرد على يصفه بأنه جعل فى بلاطه
الاطباء والمنجمين وأرباب القسراتح من المسلمين . واحتفظ بأصول
العرب فى الجباية ، وكان يحسن العربية ويحبها . ونرى المرحوم
عباس محمود العقاد يصوره بأنه رجل يريد أن يستكمل معارف
عصره الجغرافية فلم يجد من يعتمد عليه فى ذلك غير الشريف
الأدريسى .

وقد يقال أن رغبة روجر الثانى فى أن تعمل له خريطة باسمه
وبرسمه هى رغبة تنعكس فيها رغبات الحكام الشرقيين حين
يريدون تخليد أسمائهم بامثال هذه الأعمال . وقد يقال ان روجر
الثانى الفرنجى النورماندى قد حاول هنا أن يتشبه بملوك
الشرق فى بلاطاتهم ، ولكن ما من شك أنها كانت رغبة رفيعة
عالية يغلفها فكر رفيع . والا فانه قد تشبه بملوك العرب والمسلمين
فى قصورهم وأبنتهم وأرديتهم وترفهم ، ولكنه مع ذلك تشبه
بعقلاء الملوك فى ميلهم الى العلم ، وأخذهم بناصر المعرفة . وهو
تشبه يرفع من مقدار تقديرنا لهذا الرجل الذى كسب العلم من
ورائه أربح نصيب .

كيف عرف روجر الإدريسي وكيف كانت بحتره ؟

تصادفنا في تاريخ الشريف الإدريسي مسألة غامضة تحتاج الى جلاء ، ولاتزال تثير كثيرا من الأسئلة حولها ، وهي : كيف عرف الملك روجر الثاني الشريف الإدريسي ، وكيف وصل الى سمعه نبأ ذلك الجغرافي العربي ؟ ومن الذي أخبره به وحدثه عنه فاهتم الملك به واستدعاه اليه واستقدمه الى بلاطه وكلفه انجاز الخريطة المشهورة وكتابه الجغرافي المشهور ؟

ان الذين ترجموا للشريف الإدريسي ذكروا أن الملك روجر الثاني النورماني ملك صقلية قد استدعى الإدريسي من مقامه في العدو بالمغرب لكي يؤلف له كتابا في الجغرافية . ويصف المستشرق الروسي أغناطيوس كراتشكوفسكي كيف رحل الإدريسي في ٥٣٣ هـ — سنة ١١٣٨ م الى جزيرة صقلية وعبر اليها البحر في ظروف يشوبها الغموض . ومما جعل هذه الرحلة

غامضة مكتشفة بالظلام الذى يحتاج الى تصوير أن أحدا - حتى
ولا الأدريسى نفسه - لم يفلح لنا كيف غادر الأدريسى العدو
الغربية ميسا وجهه شطر صقلية التى كانت فى يد النورمان وتحت
سلطان ملكهم روجر الثانى ، وهو ثانى الفاتحين لهمسا من
النورمانيين ؟ لقد كان معقولا أن يغادر صقلية أهلها من العرب
والمسلمين التماسا للخروج من سلطان حاكم نصرانى قد يسيء
معاملتهم ، وقد يتعصب عليهم ، وفرارا من حكم غير مسلم لا تؤمن
غوائله وقد يتغير فيه الأمر من حاكم الى حاكم تبعا لرأيه الخاص
فى معاملة رعاياه من المسلمين . وهذا هو الذى حدث فعلا
- كما أسلفنا القول - فأن كثيرا من العرب والمسلمين غادروا
جزيرة صقلية فى خلال الفتح النورماندى قاصدين الى بر العدو
من الشاطئ الأفريقى على السفن الكثيرة التى كانت لهم .
وكانت مغادرتهم فى أول الفتح كثيرة ومتتالية هربا من حكم
جديد غريب لا يعلمون مدى عواقبه ، ولكنها أخذت بعد ذلك
تقل شيئا فشيئا .

ومهما كان الأمر فإن من غير المعقول أن يفد عربى مسلم الى
جزيرة أصبحت محكومة بملوك غير مسلمين . ولهذا نحا في
تعليل السر الذى حدا بالشريف الأدريسى الى الاتجاه الى صقلية
وظروفها هى ما نعلمه .

وهنا يظهر هذا السؤال : كيف سمع الملك روجر الثانى

وهو فوق عرشه بصقليه ان هناك في بر العدوؤ الأفريقي عالما عربيا من أهل البيت اسمه الشريف الأدريسى ؟ وكيف عرف هذا الملك - مهما كان ملما بأخبار الدنيا في عصره - أن هذا العالم العربي له اهتمام بالجغرافية ، وأنه ماهر في هذا العلم وعادر على التأليف فيه بطريقة تعجب الملك ويرضى عنها ؟ وهل كان للأدريسى قبل استقدام روجر الثاني له مكان بارز في علم الجغرافية مع أنه لم يكن قد سبق له قبل ذلك التأليف في هذا العلم ؟ وقد يكون استدعاء روجر الثاني للشريف الأدريسى لو كان لهذا الأخير مشاركة في التصنيف الجغرافي تجعل الملك النورماندى على علم به . ولكنه لم يؤثر عنه اشتها ر قبل سفره الى صقلية بعلم الجغرافية . ولم يذكر لنسا الشريف الأدريسى في المقدمة التي وصلت ألينا من كتابه « نزهة المشتاق » ما يشير الى كيفية قيام الصلة بينه وبين روجر الثاني ، ولا كيف استدعاه الملك الى بلاطه ، ولا كيف عرض عليه تأليف كتاب في الجغرافية . وكل ما ذكره الشريف الأدريسى عن الملك روجر الثاني قوله عنه في المقدمة : (فمن بعض معارفه السنية ، ونزعاته الشريفة العلوية ، أنه لما اتسعت أعمال مملكته ، وتزايدت همم أهل دولته ، وأطاعته البلاد الرومية ، ودخل أهلها تحت طاعته وسلطانه ، أحب أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة ، ويقتلها يقينا وخبرة ، ويعلم حدودها ومسالكها بر وبحرا ، وفي أي أقليم هي ، وما يخصها من البحار

والخلجان الكائنة بها ، مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار ..)
وواضح أن هذا الكلام لا يحل لنا مشكلة التساؤل عن كيفية
تعرف الأدريسى الى روجر الثانى ، ولا كيفية استدعاء الملك له .
لا بد أن يكون فى هذا اللقاء — أو وراء هذا التلاقى — شخص
ثالث هو الذى قام بدور الوسيط بين الرجلين ، وهو الذى
ملا أذن الملك الصقلى بأخبار عن هذا العالم العربى الذى قد
يكون عوناً لروجر على ما هو فى سبيل القيسام به من اظهار أثر
جغرافى خالد يقرن باسمه ، ويقدم برسمه .

ونحن نعلم أن جزيرة صقلية كانت ملجأ لبني حمود الأدارسة
حين انتهت دولتهم فى الأندلس ، وأن بعض أمراء الأدارسة من
بني حمود قد اتخذها له وزرا بعد خروجه من أوطانه . والشريف
الأدريسى هو واحد من أبناء هذه الأسرة العلوية ، وقد كان
جده ادريس الثانى أحد ملوك بني حمود . فلا يستبعد أن يكون
هذا الرجل هو الوسيط الذى ربط ما بين روجر الثانى والشريف
الأدريسى . وهنا يطفر سؤال آخر ؟ هل كان الأدريسى حين
استقدمه روجر الثانى فى « سبتة » بالعدوة الأفريقية . ثم خرج
منها مجيباً دعوة الداعى ؟ أم كان مارا بصقلية فى أحد أسفاره
ورحلاته ، فرفع هذا الوسيط نبأه الى الملك روجر الثانى فاستدعاه
هذا الى بلاطه ؟ وسواء أكانت الدعوة أم الاستدعاء من صقلية

الى الشريف فى وطنه العربى المغربى أم وهو على أرض صقلية،
فأن الدعوة قد تمت فعلا والتقى الرجلان .

ويسوقنا هذا الى مسألة خطيرة أثارها المستشرق البولندى
ليفيتسكى Lewicki وهى أن اهتمام روجر الثانى بالشريف
الأدريسى لم يكن بسبب علمه بالجغرافية ، وإنما بسبب شخصه
كعضو من بيت الأدارسة المندثر فى الأندلس يمكن أن تقوم فى
نفسه مطالبة بالعرش . فاستغل روجر هذه الشخصية التى قد
تنفعه يوما ما فى تحقيق أهدافه فى غزو الأندلس ليتكىء عليه ،
ويستند اليه ، ويتخذ ذريعة للغزو الذى كان يحلم به لاشباع
غرضه فى التوسع غربى « البحر الأبيض المتوسط » (١) ، بعد أن
دان له جزء لا بأس به من شرقى البحر . ولا نعلم أحدا غير
ليفيتسكى قد أثار هذه القضية الغريبة . ولعلنا تتساءل : لماذا
لم يمتز روجر الثانى فى تحقيق هدفه الذى زعمه هذا المستشرق
البولندى ؟ وما الذى صرفه عن استغلال الناحية السياسية فى
الشريف الأدريسى واللعب بهذه الورقة التى كان يظنها رابحة ،
الى استغلال الناحية العلمية عند الأدريسى . ولا تذكر الدوائر
المعاصرة لروجر الثانى شيئا عن هذا الافتراض المزعوم . ويعمل
ليفيتسكى وجهة نظره فى هذا الافتراض بأن مكانة الأدريسى لم
تكن قد تقرر بعد كعالم جغرافى حتى يستدعيه الملك النرمندى

(١) اسمه الصحيح : البحر المتوسط ، وكان يسمى قديما بحر الروم .

للمشاركة في اقامة صرح لعلم الجغرافية تحت رعايته ، بل انه لم يكن قد اشتهر يومئذ كرحالة وجواب أقطار . ومهما كان من أمر هذا الاستدعاء الذي لم تعرف الى الآن بواعثه الحقيقية ولا كيفيته فإن الشريف الأدريسى كان — كما يقرر الدكتور محمد محمود الصياد — مثالا للتعاون العلمي (١) .

ويفترض الدكتور حسين مؤنس أن يكون هذا الوسيط الذي قام بالتعارف بين روجر الثاني والأدريسى هو أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم بن حمود أحد أبناء الإدارة النازلين في صقلية ، فوقف على ما عند الأدريسى من العلم بالجغرافية والطب (فقدمه الى رجار الثاني ، أو تحدث اليه في شأنه ، فأعجب به رجار ، ووجد فيه طلبته ، فسأله أن يقيم عنده ويعمل معه ..) (٢) ولقد كان الأدريسى موضع الاحترام والرعاية والتقدير عند الملك روجر الثاني وفي بلاطه . وقد أراد الملك أن يطمئنه على مقامه في صقلية في أمن الملك وحمايته ، فقال له : « أنت من بيت الخلافة ، ومتى كنت بين المسلمين عمل ملوكهم على قتلك ، ومتى كنت عندي أمنت على نفسك » . ويروى لنا الصفدي في كتابه « الوافي بالوفيات » كيف رحب روجر الثاني بالأدريسى حين

(١) كتاب « اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية » — بقلم جماعة من علماء العرب — القاهرة سنة ١٩٧٠ — الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر .
(٢) مجلة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد — المجلدان ٩ ، ١٠ ص ٢٨١ .

وفد الى بلاطه : (فلما وصل اليه آكرم نزله ، وبالنح في تعظيمه)
والمبالغة في التعظيم هنا هي عادة فطر عليها الملك روجر الثاني
في لقائه مع العلماء والمفكرين ، وان كنا نطن آن نصيب الادريسي
منها كان غير قليل . ولا يكتفى روجر الثاني بالتسويق والتعظيم
الأدبي ، بل يشفع ذلك بالرعاية المادية ، والمساعدة المالية السخية .
فحين رضى الأدريسى بالمقام قرب روجر الثاني لتحقيق فكرته
(رتب له كفاية لا تكون الا للملوك) . ولعل الملك لاحظ في هذا
قدر الأدريسى العلمى من ناحية ، وقدره الأدبى بكونه من بيت
الأدارة المشهورين في حكم الشمال الافريقى والأندلس من
ناحية أخرى . فان حفيد الملوك من بنى حمود بالأندلس لابد أن
يلقى من المساندة المادية والأدبية ما هو جدير بمثله . ولم يكتف
روجر الثاني بهذا بل زاد فى التكريم خطوات ، فكان الأدريسى
— كما يقول الصنفدى فى الوافى — (يجىء اليه راكب بغلة ،
فاذا صار عنده يتنحى له عن مجلسه ، فيأبى ، فيجلسان معا) .
وقد نقل المرحوم محمد كرد على الفعل « فيأتى » بالتاء ، وهو
تحريف من النسخ ، وصوابه « فيأبى » — أى فيرفض التنحى
عن مجلسه ، وهو أدب من الأدريسى ورثه عن آباءه الأكرمين .

ولم تفت هذه الرعاية التى بذلها روجر الثانى للأدريسى
واحدا من المؤرخين والباحثين . وهى رعاية بلغ من قيمتها أنها
دلت الباحثين عليها . وقد أشار اليها الأستاذ العالم الهندى المعاصر

نفيسي أحمد في كتابه عن « جهود المسلمين في الجغرافيا » . كما أشار اليها المرحوم أحمد زكي باشا في مقال له بمجلة المقتطف شهر مارس سنة ١٩١٢ عن جغرافية الشريف الأديسي ذكر فيه أنه « قد بلغ ريشار — أي روجار أو روجر — من أكرامه له أنه كلما دخل عليه هرع لاستقباله عند الباب ثم أجلسه الى جانبه على سرير الملك ، حتى اذا ما أتم المحاضرات معه وأفاده بما أراد ثم هم بالخروج شيعه الملك بنفسه الى عتبة القصر » . وقد نقل صاحب « معجم المطبوعات العربية والمعربة » هذا النص عن مقال أحمد زكي باشا بالمقتطف . ولا ندرى المصدر الذي اعتمد عليه المرحوم أحمد زكي في وصف هذه الرعاية والحفاوة والتشجيع ، وقد يكون تصرف في نص صلاح الدين الصفدي الى هذا النص الذي لم نثر عليه في مرجع يعول عليه من المراجع القديمة .

ويشير جرجي زيدان في أيجاز الى تقدير روجر الثاني للأديسي فيقول في « تاريخ آداب اللغة العربية » : (ونزل — يعني الأديسي — على روجر الثاني صاحب صقلية فأجله وقربه لسعة علمه ..)

بقي أن نصحح هنا وهما وقع فيه أحد أساتذة التاريخ في جامعة عين شمس ، فقد ذكر في بحث جيد له عنوانه (دور العرب في كشف أفريقيا) نشر بمجلة « عالم الفكر » التي تصدر عن

حكومة الكويت — العدد الرابع ، مارس سنة ١٩٧١ — أن الأدريسى (جغرافى عربى اقام فى صقلية فى الفترة من سنة ١١٠٠ م — ١١٦٦ م فى بلاط الملك روجر الثانى أحد ملوك النورمان) والواقع أن الأدريسى أقام فى صقلية منذ أن وفد عليها بدعوة من روجر الثانى سنة ١١٣٨ م المقابلة لسنة ٥٣٣ هـ أى بعد أن بلغ الثمانية والثلاثين من عمره . أما التاريخان اللذان ذكرهما الدكتور جمال زكريا قاسم صاحب البحث المشار اليه فهما عام مولد الأدريسى سنة ١١٠٠ م وعام وفاته سنة ١١٦٦ م فكأن الكاتب هنا ذكر عامى الميلاد والوفاة ، وليساهما بدء دخول الرجل صقلية وخروجه منها ، بل هما بدء حياته كلها ونهاية عمره فى سنة ١١٦٦ م . والذي نصحه هنا هو فترة اقامة الأدريسى فى صقلية ، فهى من سنة ١١٣٨ الى حين وفاته ، لامن سنة ١١٠٠ م كما جاء فى بحث الدكتور جمال زكريا . أما تحقيق مولد الأدريسى ووفاته فموعدنا بهما الفصل القادم .

تحقيق الميلاد والوفاء

يذكر لنا كراتشكوفسكى فى خلال الفصل الجيد الذى كتبه عن الأدريسى فى كتابه « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » أن الشريف الأدريسى ولد بمدينة سبتة فى عام ٤٩٣ هـ المقابل لسنة ١١٠٠ م « فيما يبدو » . وقد نقل هذا التاريخ عن المستشرق الألمانى (١) زييولد المتوفى سنة ١٩٢١ م ، والذى حرر مادة « الأدريسى » فى دائرة المعارف الاسلامية . وقد نقل المستشرق الأسبائى « بالثيا » هذا التاريخ الهجرى لمولد الأدريسى فى كتابه « تاريخ الفكر الأندلسى » الذى صدرت ترجمته بقلم الدكتور حسين مؤنس سنة ١٩٥٥ . وجرى المؤلفون والمحققون ورجال الإعلام ومعاجم المؤلفين وفهارس المخطوطات على اتخاذ هذا التاريخ موعدا لميلاد الشريف الأدريسى ، لا يكاد يختلف منهم

(١) Seybold وهو مستشرق ألمانى توفى سنة ١٩٢١ ، وله إهتمامات كثيرة

بالأدريسى .

واحد . حتى العلماء الأجانب انفسهم ارتضوا هذا التاريخ واتفقوا عليه ، ومن لم يضعه منهم بالتاريخ الهجرى وضع ما يقابله من التاريخ الميلادى وهو سنة ١٠٩٩ — ١١٠٠ م . كما فعل المستشرق الايطالى « الدو ميلى » (١) فى كتابه المشهور : (العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى) .

وقد قبل المغفور له الأمير شبيب أرسلان هذا التاريخ دون مناقشة أو اعتراض وهو المعروف بكثرة تحقيقه وتدقيقه فى مثل هذه الأمور . ولو أن هذا التاريخ كان محل شك لرأينا الأمير شكيبا يتصدى لتصحيح ما فيه من خطأ ، أو إزالة ما به من ريب .

ولا ندرى المصدر العربى الذى نقل عنه المستشرق زييولد هذا التاريخ فأنا لا نعلم مؤرخا عربيا قديما تعرض لذكر التاريخ الذى ولد فيه الأدريسى ، حتى صلاح الدين الصفدى الأديب المؤرخ المشهور والمتوفى سنة ٧٦٤ هـ وصاحب معجم « الوافى بالوفيات » المشهور فى كتب المتراجم ، لم يذكر لنا تاريخ مولد الأدريسى فى الفصل الذى دونه فى ترجمته . وكذلك أغفله حاجى

(١) Aldo Mieli أحد وكلاء الجمعية الدولية لتاريخ العلوم

وقد ترجم كتابه الى العربية سنة ١٩٦٢ بقلم الدكتور بن محمد يوسف موسى ،
وعهد الحليم النجار .

خليفة صاحب « كشف الظنون » وان كان اهتمامه في أغلب الحالات بذكر الوفيات .

واذا كان تاريخ ميلاد الشريف الأدريسى موضع اتفاق بين الذين ترجموا له أو أشاروا اليه في القديم والحديث فإن مكان ميلاده — وهو مدينة سبتة — ليس موضعاً لخلاف بين المؤرخين والمترجمين . وما قال أحد ممن ترجموا له بأنه ولد في غير « سبتة » . وهو اجماع يؤكد لنا الاجماع على تاريخ مولده . الا أنه لفت نظرنا أن كتاب « المنجد في الأدب والعلوم » — وهو قسم المعارف العامة من معجم المنجد — وهو يعرف بالشريف الأدريسى ، ذكر لنا أن الرجل ولد بمدينة « سبتة بالأندلس » ، وهو وهم من المؤلف ، فإن مدينة سبتة ليست من بلاد الأندلس ولا هي من أرضها في أوربة ، ولكنها من بلاد المغرب وعلى الشاطئ الأفريقي المقابل للشاطئ الأوربي . وإذا كانت « سبتة » قد انتزعت من يد مراكش والمغرب وضمت الى أسبانيا منذ قرون فإن ذلك لا يغير من موقعها الأفريقي شيئاً . وفي كتابنا هذا فصل قائم بذاته عن مدينة سبتة التي ائجبت للعالم الاسلامي ، بل للعالم كله ، هذا العلم الجغرافي الشامخ الذي يعد بلا ريب من أعلام الجغرافيين المسلمين .

على أن الذي يلفت نظر الباحث في سيرة الشريف الأدريسى هو ذلك الخلاف الشديد بين مؤرخيه ومترجميه على تاريخ

وفاته . ونلاحظ هذا الخلاف واضحا سواء أكان التاريخ لوفاته بالتقويم الهجرى أم الميلادى . وهو خلاف يؤكد لنا موت الرجل فى غربة بعيدا عن الأهل والأوطان . وسنعرض بعد قليل لمكان وفاته وهو أيضا ليس موضع اتفاق بين المؤرخين والباحثين .

ويبدو لنا أن بعض المتحدثين عن الشريف الإدريسي وخاصة من العرب المحدثين قد آثروا أن يتخلصوا من الخلاف فى تاريخ الوفاة باغفال الإشارة مطلقا الى عام وفاته ، ولعلمهم ارتضوا بهذا أن يكونوا على جانب أمين بدلا من التعرض لتواريخ وسنوات مختلفة هى فى ذاتها محل خلاف بين المؤرخين .. وممن أغفل ذكر تاريخ وفاة الشريف الإدريسي : الدكتور فؤاد صروف فى كتابه « الرواد » الذى صدر عن مجلة المقتطف المحتجة ، والدكتور زكى محمد حسن فى كتابه « الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى » وهو كتاب جيد على ايحسازه ، والمرحوم الشيخ عبد المتعال الصعيدى فى كتابه « المجددون فى الاسلام » مع أنه كان حريصا كل الحرص على أن يذكر تاريخ ميلاده بالعامين الهجرى والميلادى ، والمرحوم الأستاذ أحمد أمين فى كتابه « ظهر الاسلام » والأستاذ عبد الله بن العباس الجرارى من علماء الرباط فى كتابه « تقدم العرب فى العلوم والصناعات » والمرحوم عباس محمود العقاد فى كتابه المشهور « أثر العرب فى الحضارة

الأوربية» والدكتور نقولا زيادة في كتابه « رواد الشرق العربي في العصور الوسطى ، والمستشرق بارتولد (١) في كتابه « رواد الحضارة الإسلامية » الذى ترجمه الى العربية المرحوم حمزة طاهر .

على أن بعض الباحثين ذكر تاريخ وفاة الأدريسى بالتاريخ الميلادى لا غير ، ومنهم عرب لا عذر لهم فى ذلك كالمرحوم الأستاذ قدرى حافظ طوقان الذى جعل تاريخ وفاة الأدريسى سنة ١١٦٦ م فى كتابه المشهور « العلوم عند العرب » ص ١٨٦ . وكالأديب الباحث جلال مظهر فى كتابه « مآثر العرب على الحضارة الأوربية » ، وقد جعل تاريخ وفاة الشريف الأدريسى سنة ١١٨٠ م (٢) . أما بعض الأجانب الذين اقتصروا على تاريخ وفاة الأدريسى بالتقويم الميلادى فمنهم «الدو ميللى» المستشرق الايطالى الذى جعل وفاته سنة ١١٦٦ م .

ومن الطريف أن نعرض فى هذا الفصل للروايات والأقوال المختلفة فى تاريخ وفاة الشريف الأدريسى . ففى تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان ح ٣ نرى أن تاريخ وفاة الأدريسى سنة ٥٤٨ هـ ، وهو تاريخ غريب ، ولا ندرى من أين أخذه زيدان وعن أى كتاب نقله . ومن عجب أن الدكتور شسوقي

(١) Bartold — وقد توفى سنة ١٩٣٠ .

(٢) وقد جاء هذا أيضا — انتهى ١١٨٠ م — فى كتاب « المستشرقون »

للاستاذ نجيب الميلى .

ضيف لم يناقش هذا التاريخ أو يصححه في الطبعة الأخيرة لكتاب جرجى زيدان التي حققها وأضاف إليها تعليقات كثيرة مفيدة سنة ١٩٥٨ م ، مع أنه في كتاب له عنوانه « الرحلات » صدر عن دار المعارف سنة ١٩٥٦ قد جعل تاريخ وفاة الأدريسى سنة ٥٦٢ هـ

والحق أن السنة التي ذكرها جرجى زيدان لوفاة الأدريسى — وهى سنة ٥٤٨ هـ — هى تاريخ وفاة الملك روجر الثانى الصقلى الذى ألف له الأدريسى كتابه « نزهة المشتاق » . ويؤكد هذه الحقيقة أكثر المصادر التاريخية المهمة بتاريخ هذا الملك النورمانى الصقلى ، وخاصة كتاب « شذرات الذهب » لابن العماد الحنبلى ، فقد جاء فيه فى أحداث سنة ٥٤٨ هـ قوله : (وفيها — أى وتوفى فيها — رجار الفرنجى صاحب صقلية ، هلك فى ذى القعدة بالخوانيق وامتدت أيامه ..) .

وجاء فى كتاب « المسلمون فى صقلية » أن وفاة الأدريسى فى سنة ٥٦٨ هـ ، وقد نقل صاحب « الأعلام » هذه الرواية ، ولكنه ارتضى الرواية الراجحة التى تقول انه توفى سنة ٥٦٠ هـ . المقابلة لسنة ١١٦٥ م ، ولا ندرى عن أخذ هذا التاريخ . أما المؤرخ الألمانى يوسف أشباخ صاحب كتاب « تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين » فقد بعد بتاريخ وفاة الأدريسى الى سنة ١١٧٥ م وتوافقها سنة ٥٧٠ من الهجرة ، ولم يذكر لنا بالطبع معتمده فى هذا التاريخ . أما المستشرق الروسى

كراتشكوفسكى فقد ذكر أن وفاة الشريف الأدريسى سنة ٦٥٠ هـ المقابلة لسنة ١١٦٠ م . وهو من أوهام الطبع وأخطاء المطبعة كما يبدو ، فإن صحة ٦٥٠ هـ هي ٥٦٠ هـ ، وصحة السنة الميلادية المقابلة هي ١١٦٥ م لا سنة ١١٦٠ م كما يتضح للمحقق المقابل بين التواريخ .

وقد جاء في بقية المصادر العربية المعتمدة أن تاريخ وفاة الشريف الأدريسى هو سنة ٥٦٠ هـ ، ويكاد يكون هذا هو أصح التواريخ وأقربها الى الصواب . وقد ارتضى هذا التاريخ الأمير شكيب أرسلان في « الجلل السندسية » وخير الدين الزركلى صاحب « الأعلام » وعمر رضا كحالة صاحب « معجم المؤلفين » ، والمرحوم فؤاد سيد مصنف الجزء الرابع من « فهرس المخطوطات المصورة » الصادر عن معهد المخطوطات التابع للجامعة العربية سنة ١٩٦٤ صفحة ١٨٦ .

أما الذين ذكروا تاريخ وفاة الأدريسى بالتقويم الميلادى فقد وقع بينهم خلاف كذلك ، مثل ما وقع في التاريخ الهجرى . فيذكر الأديب جلال مظهر في كتابه « مآثر العرب على الحضارة الأوربية » أن وفاته سنة ١١٨٠ م المقابلة لسنة ٥٧٦ هـ ، وهو تاريخ يبعد ستة عشر عاما عن التاريخ المتعالم المعروف ، ويذكر كرامرز المستشرق الهولندى أن وفاته سنة ١١٥٦ م كما في مقدمة الدكتور مقبول أحمد الهندى لكتاب « وصف الهند

وما يجاورها من البلاد» للأدريسى ، وتقابل هذه السنة سنة ٥٥١ هجرية . ويذكر مؤلف القسم الموسوعي من معجم « المنجد » أن وفاة الشريف الأدريسى سنة ١١٥٣ م ، وهي تقابل سنة ٥٤٨ هـ . وقد تأكد لنا قبل سطور أن هذه السنة هي تاريخ وفاة الملك روجر الثاني الصقلي لا تاريخ وفاة الأدريسى . وقد وقع مؤلف « المنجد » في الوهم الذي وقع فيه جرجي زيدان من قبل .

ولعل أقرب التواريخ الميلادية الى وفاة الأدريسى هو ما ذكره المستشرق زيبولد في مادة الأدريسى «بدائرة المعارف الاسلامية» حيث جعله سنة ١١٦٦ م ، وهو قريب من الصواب إذ أن سنة ٥٦٠ هـ تقابل سنة ١١٦٥ ميلادية . وكذلك ماجاء في معجم لإروش الفرنسي حيث جعل وفاة الأدريسى سنة ١١٦٤ م ، وهي تقابل عند المستشرق زامباور (١) سنة ٥٦٠ هـ كما جاء في ذيل كتابه المشهور : « معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي » المطبوع سنة ١٩٥١ .

ولعل أعجب الأقوال في تاريخ وفاة الأدريسى ما ذكره الحسن ابن الوزان المعروف باسم ليون الافريقي العلامة الجغرافي المغربي من رجال القرن السادس عشر الميلادي ، فقد ذكر أن الأدريسى

(١) هو المستشرق النمساوي Zambaur ، المتوفى سنة ١٩٢٦ ، وقد ترجم كتابه الى العربية بقلم الدكتور زكي محمد حسن والمفيد من زملائه

توفى في صقلية سنة ٥١٦ هـ ، وهو تاريخ غير معقول ، لأن المعروف أن الأدريسى دخل صقلية سنة ٥٣٣ هـ المقابلة لسنة ١١٣٨ م فكيف تكون وفاته قبل هذا التاريخ ؟ ومن هنا بادر المستشرق الفرنسي دي سلال المتوفى سنة ١٨٧٨ إلى تصحيح هذا الوهم إلى سنة ٥٦٠ هـ .

ويسوقنا كلام ليون الأفريقي عن وفاة الأدريسى في صقلية إلى خلاف آخر حول المكان الذي لقي فيه الأدريسى ربه ، فيقول المستشرق كراتشكوفسكى أنه توفى بمدينة سبته بالمغرب ، ويرجح الدكتور حسين مؤنس في بحث له جيد عن الأدريسى أنه مات في صقلية بعد مبارحة بالرم بقليل ، وينفى أى دليل على أنه عاد إلى المغرب أو ذهب إلى أى بلد إسلامي آخر بعد ذلك (صفحة ٢٨٥ من مجلة « معهد الدراسات الإسلامية في مدريد » المجلدان التاسع والعاشر) .

وسواء مات الأدريسى في جزيرة صقلية ، أم في سبته ، أم في أى أرض أخرى غيرهما فقد توسد باطن الأرض التي ذرعها طولاً وعرضاً كاشفاً النقاب عن أسرارها ومعالمها وكنوزها وطبيعتها .. وهنا تستوى كل تربة ، وتتساوى كل حفرة ، وما أصدق الشاعر أحمد شوقي حين قال في رثاء المرحوم عبد الخالق ثروت الذي مات غريباً في فرنسا ونقل جثمانه إلى مصر :

يموت في الغاب أو في غيره الأسد كل البلاد وساد حين تتسد

لمحات من سبّنة المدينة التي ولد فيها الإدريسي

شهدت مدينة سبّنة بالمغرب مولد الشريف الإدريسي سنة ٤٩٣ هـ على أصح الأقوال التي تدور حول مولد هذا الرجل ومكان ولادته . وقد سجل لنا ياقوت الحموي في معجمه ضبط هذه المدينة ، وأنها بفتح السين ، وقد تكسر . والسبت لغة هو القطع . وسبّنة بتاءين آخرهما تاء التأنيث على وزن « فعلة » . وهناك في فلسطين بلدة اسمها «سبت» ، وهي بين طبرية والرملة عند عقبة طبرية . وقد يتوهم بعضهم أن « سبّنة » في الأندلس ، ولكن الصواب أنها من بلاد المغرب . ويقول صفى الدين بن عبد الحق البنداري في التعريف بها : (سبّنة بلفظ الفعل المرة الواحدة من السبت ، وهو القطع ، بالفتح ، وقيل بالكسر ، بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ، مرساها أجود مرسى على البحر ، وهو على بر يقابل جزيرة الأندلس ، على طرف الزقاق . مدينة

حصينة تشبه المهدية التي بافريقية ، لأنها ضاربة في البحر ، داخلة كدخول كف على زند (١) ..) وتصنفها كتب الجغرافية والموسوعات بأنها بلدة بحرية من أعمال مراكش ، على مضيق جبل طارق ، وعلى مسيرة عشرة أميال جنوبى جبل طارق ، أو أربعين ميلا شمال غربى تطوان (٢) . والبلدة محصنة ، بل انها أهم المراكز الأسبانية الحصينة .

وأشارة ياقوت وابن عبد الحق الى أن السبت لغة هو القطع تحمل معنى السبب فى تسمية المدينة بهذا الاسم . وهذا جائز او ان اسم البلدة كان عربى الأصل فيكون اشتقاقه من السبت بمعنى القطع ، باعتبار أنها مقطوعة من الجانب الشرقى ، لأن البحر يكتنفها من ثلاث جهات . ونرى ابن عذارى المراكشى صاحب « البيان المغرب » يعزو هذا الاسم الى « سبت » وهو ولد من أحفاد سام بن نوح . ولكن الأدريسي نفسه يفصل فى هذه القضية بما ترتاح اليه النفس من سبب معقول فهو ينسبه الى اللفظ اللاتينى (سايتوم) . على أن أرجح الأقوال ما قيل من أنها سميت بهذا الاسم الذى أطلقه الرومان على الهضبات التى شيدت عليها البلدة . ومن هنا نعرف أن سبتة مدينة قديمة ، وأنها شهدت

(١) مرصد الاطلاع ، على أسماء الامكنة والبقاع ، ج ٢ ص ٦٨٨ .

(٢) تطوان : مدينة بشمالى الغرب وتشتهر بالصناعة . وقد احتلتها اسبانيا سنة ١٩١٥ ، وكانت عاصمة المنطقة الخليفة قبل استقلال البلاد سنة ١٩٥٦ .

قرونا من العصر المسيحي ، كما شهدت فترة غير قصيرة من عهد ما قبل المسيح . وكان يحكم سبته أيام الفتح العربي للأندلس الكونت يوليان الذي أفلح في الاستقلال بالأمر فيها . ويوليان هذا هو الذى تذكر المصادر القديمة أنه أمد القائد المسلم طارق ابن زياد بكل الوسائل والمعدات التى مكنت العرب من عبور البحر الى أسبانيا والاستيلاء عليها وادخالها فى حوزة المسلمين . ولم تنقضى بضع سنوات على فتح العرب للأندلس حتى دخلت سبته المغربية فى نطاق حكمهم ، فاستولوا عليها واستقروا بها .

وقد تعرضت سبته خلال تاريخها الطويل لعدد من الحوادث والتيارات والغارات حتى من قبائل البربر أنفسهم . ففى منتصف القرن الثانى الهجرى نكبت سبته بغزو بربر طنجة لها واجبارهم العرب على الخروج منها . وقد خربت البلدة فى هذه الغزوة تخريبا تاما ، حتى ليروى البكرى الجغرافى المؤرخ الأندلسى أنها ظلت خرابا تعمرها الوحوش مدة . ولم تهدأ سبته منذ ذلك العهد ، فقد ظلت موضعا للنزاع بين مغاربة الأندلس وولاة المغرب ، وكان الأمويون أصحاب قرطبة بالأندلس حريصين على الاحتفاظ بها فى أيديهم — على الرغم من وقوعها فى أرض المغرب — لأنها بموقعها الجغرافى الفريد كانت المنفذ الى أفريقيا ، ومن هنا سورها عبد الرحمن الناصر بسور منيع من الحجارة .

وتعاقب المرابطون والموحدون على حكم سبته فى حوادث

كثيرة لا محل هنا لذكرها . إلا أنها بعد عدد من الاضطرابات والفتن وقعت في يد الحفصيين من بنى مرين . ولكنها لم تبق طويلا في يد المرينيين اذ اتجهت أنظار البرتغاليين للاستيلاء عليها . فأرسل ملكهم يواو الأول حملة عليها ٨١٨ هـ سنة ١٤١٥ م انتهت باستيلاء البرتغال عليها على الرغم من المقاومة الباسلة التي بذلها قائدها العربى . وحين ضم فيليب الثانى الأسبانيى بلاد البرتغال الى أملاكه انتقلت سبتة بهذا الضم الى حوزة الأسبان .. واحتفظ هؤلاء الأسبان بها وحملوا البرتغاليين على الاعتراف بها لهم بمقتضى معاهدة لشبونة سنة ١٦٦٨ م .

وبالرغم من محاولات المسلمين لاسترداد سبتة وانتزاعها من يد الأسبان فان هذه المحاولات الباسلة لم تفلح . واحتلها الانجليز من سنة ١٨١٠ الى سنة ١٨١٤ حتى يتخلصوا من الحكم الأسبانيى الذى كان فيه نقص لسيادتهم فى منطقة جبل طارق ، ولكن أسبانيا أستردت سبتة من جديد ، وعادت فى حوزتهم . وازدادت استمارة المسلمين فى استعادة سبتة وردها الى ممتلكاتهم ، واستمرت أعمال العداء بين المراكشيين والأسبان . وأكدت معاهدتا وادى راس وتطوان فى النصف الثانى من القرن الماضى اطلاق يد الأسبان فى سبتة الى اليوم .

ويصادفنا فى كتاب « الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى » لأبى العباس الناصرى السلاوى المتوفى سنة ١٨٩٧ م نص طريف

في كيفية استيلاء البرتغاليين على سبته في القرن الخامس عشر
الميلادي يقول فيه : (وذكر صاحب نشر المثنى في كيفية استيلاء
البرتغال على « سبته » قصة تشبه قصة قصيرة مع الزباء ، قال :
« رأيت بخط من يظن به التثبت والصدق أن النصاري جاءوا
بصناديق مقفلة يوهمون أن بها سلعا وأنزلوها بالمرسى كعادة
المعاهدين وذلك صبيحة يوم الجمعة من بعض شهور سنة ثمانى
عشرة وثمانمائة — ١٤١٥ م — وكانت تلك الصناديق مملوءة
رجالا عددهم أربعة آلاف من الشباب المقاتلة ، فخرجوا على حين
غفلة من المسلمين ، واستولوا على البلد ، وجاء أهله الى سلطان
فاس مستصرخين له ، وعليهم المسوح والشعر والوبر والنعال
السود رجالا ونساء وولدانا ، فأنزلهم بملاح المسلمين ، ثم ردهم
الى « الفحص » قرب بلادهم لعجزه عن نصرتهم ، حتى تفرقوا في
البلاد ، والأمر لله وحده .. وسمعت من بعضهم أن الذى جسراً
النصارى على ارتكاب تلك المكيدة هو أنهم كانوا قد قاطعوا
أمير سبته على أن يفوض اليهم التصرف في المرسى ، والاستبداد
بغلته ، ويبدلوا له خراجا معلوما في كل سنة . فكان حكم المرسى
حينئذ لهم دون المسلمين . ولو كان المسلمين هم الذين يلون حكم
المرسى ما تركوهم ينزلون ذلك العدد من الصناديق مقفلة لا يعلمون
ما فيها . والله أعلم بحقيقة الأمر) (١) ..

(١) الاستقصا : للسلاوى ، ج ٤ ص ٩٣ .

ولعل من المناسب هنا — تكريماً لهذه البلدة المنجية من قديم الزمان — أن نذكر هنا في هذا الفصل أسماء طائفة من الرجال الذين أنجبتهم هذه المدينة فحملوا في أسمائهم شرف الأنتساب إليها ، ونذكر هؤلاء الذين أنجبتهم وولدوا تحت سمائها وفوق أرضها ولكن أسماءهم لم تحمل النسبة إليها ، ثم نضيف إليهم أسماء طائفة أخرى من العلماء وفدوا عليها ، أو أقاموا بها ، أو أقرأوا القراءات في معاهدها ومساجدها ، أو تولوا القضاء فيها ، أو عاشوا فيها إلى أن دفنوا في ثراها وطوتهم قبورها .

فمن أهل سبته الذين ولدوا فيها وحملت أسماؤهم النسبة إليها ، أو لم يولدوا فيها ولكنهم وفدوا عليها وأقاموا بها زمناً فانتسبوا إليها كذلك : أحمد بن محمد بن اسماعيل القيسي المعروف بالسبتي ، وأصله من أشبيلية بالأندلس ، ولكنه رحل إلى سبته سنة ٣٧٠ هـ ، وسافر إلى المشرق ثم عاد ثانية إلى سبته فانتسب إليها وتوفي بها سنة ٤٢٩ هـ . ومنهم محمد بن أحمد ابن هشام اللخمي السبتي الأديب اللغوي النحوي ، وله من الكتب «لحن العامة» و «شرح مقصورة ابن دريد» و «تقويم اللسان» (١) ، وتعليم البيان . وقد ترجم له ابن الأيثار في «التكملة» ، والامام السيوطي في «بغية الوعاة» وتوفي سنة

(١) في البغية اسم هذا الكتاب «المدخل إلى تقويم اللسان» وتعليم البيان» ج ١ ص ٤٨ .

٥٧٠ هـ . ومنهم شمس الدين أبو عبد الله محمد السبتي ، وله « الغرر البهية » ، في شرح الرسالة السبتية » ، وقد ترجم له البغدادى في « ايضاح المكنون » ، وتوفي سنة ٦٩٨ هـ . ومنهم الحسين القوصي السبتي المفسر الفقيه . وقد ولد بقوص من صعيد مصر ، وتوفي بأسوان سنة ٦٨٢ هـ ، ولا ندرى العلة في تلقيبه بالسبتي ، ولعل أصوله من سبتة (١) ، أو لعله نزل بسبتة فنسب اليها ، وهو صاحب « المختصر في تفسير القرآن » للشعلبي ، وقد جمع الى النسبة السبتية التلقيب بالمعين . ومنهم محمد بن ابراهيم ابن غصن السبتي من العالمين بالقراءات ، وقد جاور بمكة والمدينة ، وتوفي بالقدس . وهو مشهور بكتابه « مختصر الكافي في القراءات » . وقد ترجم له المقرئ في « نفح الطيب » وابن الجزري في « طبقات القراء » ، وتوفي سنة ٧٢٣ هـ . ومنهم محمد بن علي ابن هاني السبتي من رجال القرن الثامن الهجري ، وقد اشتهر بالأدب والشعر والتاريخ والفرائض ، ومن كتبه : « الغرة الطالعة » في شعراء المائة السابعة » ، و « شرح تسهيل الفوائد » للامام ابن مالك في النحو ، وقد ترجم له ابن حجر في « الدرر الكامنة » ، والسيوطي في « بغية الوعاة » وتوفي سنة ٧٣٣ هـ . ومنهم يوسف ابن موسى السبتي الفقيه المالكي الحافظ ، وأصله من مدينة سبتة ، وتلقى العلم فيها ، وأقرأ بجامعة باب السلسلة بمدينة فاس المغربية .

(١) ذكر الادفوى في « الطالع السعيد » انه سبتى المعتد ، قوصى المولد

وله من المؤلفات « شرح رسالة ابن ابي زيد » في فروع الفقه المالكي ، وهو شرحان : كبير ، وصغير . وتوفي في ختام المائة السابعة سنة ٧٠٠ هـ . وقد ترجم له من المحدثين خير الدين الزركلي في « الأعلام » ، وعمر رضا كحالة في « معجم المؤلفين » . ومنهم محمد بن أحمد الحسنى السبتي اللغوى النحوى الشاعر ، وله من المؤلفات « شرح مقصورة ابن حازم » ، وديوان شعر عنوانه « جهد المقل » و « شرح القصيدة الخزرجية » في العروض والقوافي ، وتوفي بغرناطة الأندلسية سنة ٧٦٠ هـ وهو من مواليد سبنة المغربية . ومنهم محمد بن على بن معلى القيسى السبتي الفقيه من رجال القرن السابع الهجرى ، ولا يعلم تاريخ وفاته ، ومن كتبه : « المناسك » ، وقد ذكره التنبكتي في كتابه « نيل الابتهاج » (١) . ومنهم محمد بن عبد الحق الأنصارى السبتي من رجال القرن التاسع الهجرى ، وله مشاركات في الأدب والشعر وقد ترجم له السخاوى في « الضوء اللامع » ، وله من المؤلفات « شرح البردة » للأمام البوصيرى ، وتوفي سنة ٨٣٨ هـ . ومنهم ابراهيم الغافقى السبتي من رجال المائة الثامنة ، ترجم له ابن حجر في « الدرر الكامنة » وابن العماد الحنبلى في « شذرات الذهب » ، والياضى في « مرآة الجنان » ، وكان فقيها نحويا عالما بالفرائض . ومن عجب الأمر أنه ولد بأشبيلية الأندلسية ، وتوفي بمدينة

(١) نيل الابتهاج ، بتطريب الديباج ، ص ٢٣٠ .

سبته المغربية ، فحمل في اسمه النسبتين : الاشبيلي ، والسبتي ،
وتوفي سنة ٧١٦ هـ .

وهناك طائفة من العلماء أصلهم من سبته ، ولكنهم لم يحملوا
النسبة اليها في أسمائهم ، بل حملوا نسبة أخرى ، كالنسبة الى
قبائلهم العربية الكبرى ، أو النسبة الى مدينة أو إقليم آخر
اشتهروا به ، فتنوسيت « سبته » مدينتهم الأصلية مع أنهم من
مواليدها . ومن هؤلاء السبتيين بالمولد لا بالنسبة : ابراهيم
ابن جعفر اللواتي المعروف بابن الفاسي ، وقد اشتهر بالعلم والزهد
والتقشف . وهو من أهل سبته وتوفي سنة ٥١٣ هـ . ومنهم
اسماعيل بن حمزة بن زكريا الأزدي ، وقد غلب عليه الاشتغال
بأصول الديانات . وهو من مواليد سبته ، ولم يذكر ابن بشكوال
في « الصلة » تاريخ وفاته . ومنهم عبد الله بن حمو ، وقد كتب
القاضي أبو الفضل بن عياض بخطه الى ابن بشكوال أنه من أهل
سبته ، وتوفي سنة ٤٧٣ هـ . ومنهم عبد الله بن علي — أو ابن
يعلى — المعافري ، وهو من أهل سبته ، وكان حجة في الفقه
والنحو والبلاغة مقدما فيها ، وتوفي سنة ٤٨٦ هـ ، وهو خال
القاضي أبي الفضل بن عياض . ومنهم قاسم بن محمد بن هشام
الرعي ، وذكر القاضي ابن عياض أن أصله من سبته ، وتوفي
سنة ٤٤٨ هـ . ومنهم محمد بن علي بن عبد الله الأموي المعروف
بابن الشيخ ، وهو من أهل سبته وكان شيخ الحديث فيها في

وقته ، وقد جمع الى العلم الخير والصلاح ، وتوفي في حدود سنة ٤٠٠ هجرية على ما ذكره صاحب « الصلة » . ومنهم عياض ابن موسى بن عياض اليحصبي من أهل سبته على ما ذكره ابن بشكوال ، وتعلم بقرطبة — وهو في هذا يشبه الشريف الأدرسي — وتولى القضاء بسبته ، وتوفي بمراكش مغربا عن وطنه سنة ٥٤٤ هـ . ومنهم يوسف بن حمود بن خلف الصدفى ، من أهل سبته وولى القضاء فيها ، وقد جمع الى الفقه الأدب والشعر وتوفي سنة ٤٢٨ هـ .

وهناك طائفة من العلماء رحلوا الى سبته من المشرق أو المغرب أو الأندلس ، وأقاموا بها ، وتولوا فيها القضاء أو التدريس والاقراء ، ولكنهم لم يحملوا في أسمائهم الانتساب اليها ، ومع هذا ظلت سبته تحتفظ بذكرى وفودهم عليها ، واقامتهم فيها ، وتدريسهم بها . ومن هؤلاء : أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الأنصارى الشارقى ، فقد دخل سبته بعد جولات في العراق وفارس والأهواز ومصر والأندلس . وقد اشتهر بمواعظه التى تذيب القلوب ، وكثيرا ما كان يبكى فى خلال وعظه فيسيل دموع سامعيه وتوفى بشرقى الأندلس فى نحو سنة ٥٠٠ هـ . ومنهم حجاج بن قاسم بن هشام الرعينى ، أصله من أهل المرية بالأندلس ، ثم رحل الى الشرق ، وصار الى سبته فسكنها ، وتوفى سنة ٤٨٠ هـ . ومنهم عبد الله بن أدريس المقرئ ، وهو سرقسطى

الأصل ، ثم وفد على سبته ، فسكن بها وتصدر في جامعها للاقراء وتوفي سنة ٥١٥ هـ . ومنهم الشاعر الضرير على بن عبيد الغنى الفهرى الحصرى القيروانى صاحب قصيدة : « ياليل الصب متى غده » المشهورة التى حظيت بمعارضات كثيرة لها فى القديم والحديث . ومن عارضها من المحدثين أحمد شوقى ، ومحمود بيرم التونسى ، وبشارة الخورى ، ورشيد أيوب ، ومسعود سماحة ، والأمير نسيب أرسلان ، وفوزى المعلوف ، وخير الدين الزركلى ، وولى الدين يكن ، وجميل صدقى الزهاوى ، وأبو القاسم الشابى ، واسماعيل صبرى « باشا » وغيرهم . وقد دخل الحصرى القيروانى الأندلس ، ونزل سبته بالمغرب ، وأقرأ بها القراءات فلقى اقبالا كثيرا ، وتهافتا على حضور دروسه . وفى سبته زادت شهرته ، وطبقت الآفاق سيرته ، ورأسل ملوك الطوائف بالأندلس ، ومدحهم ، كما اتصل بعلماء الأندلس وأدبائها ، وتوفى بطنجة سنة ٤٨٨ هـ .

ولقد شاء الله أن يكون الشريف الأدريسى من مواليد سبته وأهلها الذين لم يحملوا فى اسمهم النسبة إليها . ولم يكن فى هذا وحده ، ولا بدعا من العلماء الذين ذكرنا بعضهم قبل ذلك على أنهم من أهل سبته الذين لم ينتسبوا إليها . وإذا كان بعض أولئك العلماء السبتيين بالمولد قد حمل فى اسمه نسبة الى بطن قديم من بطون العرب ، أو الى مدينة أخرى غير مدينة المولد ، أو الى

اقليم آخر ،فأن الشريف الأدريسى قد حمل نسبة أجداده وآبائه
الأدارسة ، فيقال له : الأدريسى ، نسبة الى جده الأعلى أدريس ،
مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب فى القرن الثانى الهجرى . ويقال
له : الحمودى ، نسبة الى آبائه بنى حمود الأدارسة الذين أسسوا
ملكاً بالأندلس فى عهد ملوك الطوائف . وقد سماه بعضهم :
الشريف الصقلى ، نسبة الى جزيرة صقلية التى وفد عليها وأقام
بها قريباً من الملك روجر الثانى النورماندى وبدعوة منه ، لإنجاز
عمله الجغرافى العظيم . ولكننا لا نعلم مؤرخاً أو باحثاً نسبته الى
بلد مولده : سبتة ، ولم نر فيما بين أيدينا من مصادر من لقبه
بالشريف السبتى . وهكذا حرمت مدينة سبتة — بالانتساب —
اسم هذا الرجل الكبير ، وإن كانت لم تحرم شرف انجابه
واتحاف الدنيا بعمله العلمى الجليل ..

مع بعض معاصري الشريف الإدريسي

نستطيع أن تتمثل صورة لعصر الشريف الإدريسي من خلال بعض معاصريه في القرن السادس الهجري . ولن نذهب الى الشرق العربي لتبين تلك الملامح ، بل نستطيع أن نتلمسها في الرجال الذين كانوا يعيشون في صقلية والأندلس والمغرب في ذلك العصر . وإذا كانت قد حدثت بعض أحداث كبرى في رقعة المملكة العربية الاسلامية كلها ما بين مشرق ومغرب خلال ذلك العصر ، فان الذي يهمنا هنا في هذا الفصل هو الرجال الذين شملهم عصر الإدريسي في المحيط العربي الاسلامي القريب منه ، وهو محيط صقلية والأندلس وبلاد المغرب . ولن يفوتنا أن نشير هنا الى أن القرن السادس الهجري — وهو القرن الذي أدرك الإدريسي منه ستة عقود من الزمان — كان يزدهم في الشرق برجال برزوا في الأدب والشعر واللغة والتاريخ والعلوم الاسلامية والعلوم الدخيلة

من أمثال ابن منير الطرابلسي الشاعر ، والطغرائي صاحبة اللامية المشهورة ، ودلال الكتب ، وابن التعاويدي ، ونجم الدين الهرتي ، وأبي اسحاق الغزي ، والارجاني ، والاييوردي ، والقاضي الفاضل ، والحريزي صاحب المقامات ، والجواليقي اللغوي صاحب «المعرب» ، وابن الشجري صاحب «الأمالي» ، وابن الدهان ، وكمال الدين الانباري صاحب «نزهة الألباء» ، والميداني صاحب «مجمع الأمثال» ، والإمام الزمخشري صاحب «الكشاف» في تفسير القرآن «وأساس البلاغة» في اللغة .
ونشوان بن سعيد الحميري اليمني صاحب «شمس العلوم» والعماد الأصفهاني صاحب «الخريدة» ، وأسامة بن منقذ الأمير العربي الرحالة المؤرخ صاحب «الاعتبار» ، والسمعاني صاحب «الأنساب» ، وابن القلانسي المؤرخ ، وابن عساكر الدمشقي الحافظ المؤرخ صاحب «تاريخ دمشق» ، وعمارة اليمني الشاعر المؤرخ صاحب «تاريخ اليمن» ، و«النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية» ، وابن الجوزي المؤرخ صاحب «المنتظم» ، والشهرستاني صاحب «الملل والنحل» وغيرهم من أعلام الفكر والثقافة في القرن السادس .

كان القرن السادس الهجري يموج بهؤلاء الرجال وكثيرين غيرهم في المشرق ومصر على الرغم من ازدهار الحوادث الجسام على العرب والمسلمين كسقوط صقلية في يد النورمان ، والحروب

الصليبية والأخطار المحدقة بالمسلمين في الأندلس ، وسقوط بعض
العواصم العربية الكبرى في الأندلس .

أما المغرب والأندلس فلم يكن أقل حفولا بالعلماء والرجال
البارزين ، ومنهم الشعراء والأدباء ورجال اللغة ، وعلماء الجغرافيا
والرحالون ، ورجال السياسة والقيادة ، والفلاسفة .

وكانت جزيرة صقلية ذاتها — على الرغم من سقوطها في يد
النورمان — لا تزال تجود ببعض الرجال الذين كانوا امتدادا
لأسلافهم العظماء على تلك الأرض الطيبة ومنهم ابن القطائع
السعدى الذى ولد فى صقلية ، وتعلم فيها ، ولما دخلها النورمان
فأصبح عز عليه أن يبقى فيها بعد ما حل بها ، فرحل الى مصر ،
واتخذ منها وطنا ثانيا له وعاش فيها الى أن أدركته منيته سنة
٥١٥ هـ ، وله من الكتب كتاب « أبنية الأفعال » ، « والعروض
البارع » ، وكتاب « الشافى فى القوافى » . ومن رجال صقلية فى
القرن السادس الذى عاش فيه الإدريسى ، الأديب المؤرخ
ابن ظفر الصقلى المتوفى سنة ٥٦٥ هـ ، وقد كان قريبا بالمقام من
الشرىف الإدريسى ، وان كنا لا نعلم شيئا عن الصلة بينهما ،
فقد كانا متعاصرين ، ولكن انشغال الإدريسى بالمهمة الجغرافية
التي كلفه اياها الملك روجر الثانى ربما حجزه عن الاختلاط باخوانه
العرب من أهل الجزيرة وسكانها . وله كتاب مشهور عنوانه

« سلوان المطاع » في الأدب والتاريخ الفه لبعض الفواد العرب
في صقلية سنة ٥٥٤ هـ أى قبل وفاة الأدريسى ببضعة أعوام .

وقد عاش الشاعر الصقلى أبو محمد عبد الجبار بن حمد يس
سبعة وعشرين عاما من القرن السادس ، حيث توفي سنة ٥٢٧ هـ ،
وكانت وفاته قبل دخول الأدريسى صقلية عام ٥٣٣ هـ بست
سنوات ، ولا ندرى ان كان الرجلان تلاقيا قبل ذلك في مكان
آخر خارج صقلية . والمعروف أنه شهد صقلية تسقط في يد
النورمان بلدا اثر بلد ، وهو في هذا غير الشريف الأدريسى الذى
دخل صقلية في عهد الملك روجر الثانى بعد أن توطدت فيها
أقدام الفاتحين ..

وهناك الشاعر المصرى السكندرى نصر الله بن قلاقس الذى
نشأ بالاسكندرية بعد ولادته فيها سنة ٥٣٢ هـ . وكان مولعا
بالأسفار وركوب البحار ، فقصده بالزيارة جزيرة صقلية سنة
٥٦٣ هـ — أى بعد وفاة الأدريسى بثلاث سنوات . ومن هنا
لم يقدر للرجلين أن يتلاقيا . ولكنه التقى بقائد سياسى عربى في
الجزيرة اسمه « أبو القاسم بن الحجر » ، وكان زعيم المسلمين
وقائد العرب في صقلية فصنف له كتابا باسمه عنوانه « الزهر
الباسم ، في أوصاف أبى القاسم » واختص ابن قلاقس بمدائحه هذا
القائد الزعيم المحنك الذى كان ينافسه في الزعامة مسلم آخر .
وتدل الصفات التى خلعها ابن قلاقس على ممدوحه هذا في

صقلية أنه كان رجلا من رجال القلم يدبر الأقاليم — أى الأقسام العسكرية — ولعله كان من رجال ديوان الطراز وديوان الإنشاء بعد أن أبقاها النورمان على حالهما كسابق العهد بهما فى العصر الاسلامى .

ومن مدائح ابن قلاقس لأبى القاسم بن الصجر الزعيم العربى فى صقلية قوله :

وبيميناك طير يمن وسعد
أصفر الظهر أسود المنقار
قلم دبر الأقاليم فالكتب
به من كتاب الأقدار
يا طراز الديوان والملك أصبحت
طراز الديوان والأشعار

ومن شعراء الأندلس المعاصرين للشريف الأدريسى أبو بكر محمد بن قزمان المتوفى سنة ٥٥٥ هـ ، أى قبل وفاة الأدريسى بخمس سنوات . وكان ابن قزمان اماما للشعر العامى المعروف بالزجل فى عصره

أما الشاعر الأندلسى ابن خفاجة فقد أدرك الثلث الأول من القرن السادس ، حيث توفى سنة ٥٣٣ هـ ، وكانت اقامته فى شرق

الأندلس حيث كانت صقلية قريبة الى شرقى البلاد ، أما الشاعر الأندلسى الآخر ابن عبدون فقد أدرك عشرين عاما من القرن السادس حيث توفي سنة ٥٢٠ هـ ، وهو صاحب القصيدة الرائية التى رثى بها ملوك بنى الأفطس ، ومطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالآثر

فما البكاء على الأشباح والصور ؟

وكان القرن السادس يحفل بحفنة من الرحالة والجغرافيين العرب منهم أبو عبد الله المازنى الغرناطى المتوفى سنة ٥٦٥ هـ — أى بعد وفاة الأدريسى بخمسة أعوام ، وهو من مواليد غرناطة ، وقد رحل الى الشرق فزار مصر ، وبغداد وحلب وخراسان ، وكان آخر مطافه بدمشق حيث مات فيها . وهو صاحب كتب فى الرحلات وعجائب المخلوقات . وله كنيستان اشتهر بهما : أبو حامد ، وأبو عبد الله ، وكانت هاتان الكنيتان ، بما صحبهما من طول اسمه ، سببا للخلط فى التعريف به عند بعض الباحثين . وقد ترجم له كراتشكوفسكى ، وجرجى زيدان ، والدكتور حسين مؤنس تراجم متفاوتة بين الايجاز والتوسط .

أما محمد بن أبى بكر الزهرى فقد عاش فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى ، وقد بلغ من جهالة أمره أنه أطلق

عليه اسم « مؤلف المرية (١) المجهول » ويرجع ذلك الى اللبس والغسوض الذي يدور حول مخطوطات مصنفه . وقد اهتم الزهرى في كتابه بأوصاف الأندلس والمغرب وجزيرة صقلية ، وكان للأندلس من كتابه أوفى نصيب . وفي ذلك العصر أيضا عاش الفقيه أبو بكر محمد بن العربي المتوفى سنة ٥٤٣ هـ ، وإذا كانت قد غلبت عليه ناحية الفقه والقضاء فإن كتاب رحلته المفقود يصور لنا ناحية من اهتمامات علماء ذلك العصر بأدب الجغرافية الوصفية والرحلات . وكثيرا ما نرى ابن خلدون ، والمقرئ صاحب « نفع الطيب » ينقلان عنه . ويبدو أن الرجل كان مولعا في كتاب رحلته بالحديث عن صنوف العجائب والغرائب ، ولعله وجد فيها مجالا لارضاء أذواق القراء الذين يؤثرون أخبار العجائب .

ولن يفوتنا هنا أن نذكر اسم ابن جبير الكنتاني الرحالة المشهور في القرن السادس ، وقد مات في أواخر ذلك القرن ، أى بعد الإدريسي ببضعة وعشرين عاما . وفي رحلته من الأوصاف ما يدل على الدقة والتنبه والملاحظة القوية . وله في وصف صقلية وبلداتها أوصاف بالغة الدقة ، ويبدو من خلال حديثه عنها — في خلال رحلته اليها — اساه البالغ على ما صار اليه أمر المسلمين والعرب في تلك البلاد ، ولا ينى في أكثر من موضع من رحلته يدعو الله أن يرد هذه الأرض الى أصحابها المسلمين ..

(١) المرية Almeria بلد مشهور بالأندلس ، وهي مرفأ على البحر المتوسط . وكانت قديما من مدن مملكة غرناطة .

ولما كان التاريخ صنوا للجغرافيا ومكملها ، فأئنا لن يفوتنا
في هذا المقام أن نذكر أسماء بعض مؤرخين من الأندلس في القرن
السادس ، ومنهم الفتح بن خاقان الأشبيلي المتوفى سنة ٥٣٥ هـ
وصاحب كتابي « قلائد العقيان » و « مطمح الأنفس » ، وابن
يسام الشنتمرى صاحب كتاب « الذخيرة » المتوفى سنة ٥٤٢ هـ ،
وأبو القاسم السهيلي صاحب كتاب « الروض الأنف » في شرح
السيرة النبوية لابن هشام ، وابن بشكوال المؤرخ المتوفى سنة
٥٧٨ هـ وصاحب كتاب « الصلة » الذي جعله ذيلا على كتاب
« تاريخ علماء الأندلس » لابن الفرضي ..

كتاب نزهة المشتاق

ان كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » هو الكتاب الذي عقد للأدريسي هذه الشهرة التي يتمتع بها بين الغربيين والشرقيين على السواء . وعلى الرغم مما كان للكرة الأرضية من الفضة التي صنعها ، وما كان لخريطته ومصوراته من شهرة عالية وقيمة علمية كبيرة ، فإن « نزهة المشتاق » ظل محتفظا بمكانته ، ولا يزال الى الآن نبعاً ينهل منه كل غارف . ويحكى لنا كثير من الباحثين السبب في تأليف هذا الكتاب . ويلخص لنا « بالنشيا » السبب بقوله : (ولما كان رجار قد رغب في أن يكون لديه كتاب في صفة الأرض ، مؤلف عن مشاهدة مباشرة لا مستخرج من الكتب ، فقد تصدى الأدريسي لوضع ذلك الكتاب ، وانتخب نفراً من أذكىء الرجال ، وبشهم في شتى النواحي يصاحبهم الرسامون ، وجعل يتلقى ما يعودون به ويسجله أولاً

بأول ، وفرغ من كتابه سنة ٥٤٨ هـ — ١١٥٤ م ، ثم أضاف إليه أجزاء أخرى فيما بعد ، وسماه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» . ويعرف كذلك بالكتاب الرجارى ..) ويبدو من هذا النص انه مأخوذ من المقدمة التى كتبها الأدريسى نفسه لكتابه . وفيها يصرح الادريسي بأنه لما اتسعت أعمال مملكة الملك روجر وأطاعته البلاد الرومية .. أحب أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة ، ويقتلها يقينا وخبره ، ويعلم حدودها ومسالكها برا وبحرا وفي أى اقليم هي وما يخصها من البحار والخلجان الكائنة بها ، مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار فى الأقاليم السبعة .

وأقدم طبعة عربية لهذا الكتاب فى سنة ١٥٩٢ م بمطبعة الميديتشى بمدينة رومة تحت عنوان طويل هو « نزهة المشتاق ، فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق » . وهذه الطبعة نادرة الوجود ، ولعلها أقدم طبعات الكتاب بالعربية . وتضم مكتبة باريس نسخة خطية كاملة من هذا الكتاب .

ولنزهة المشتاق أكثر من مخطوطة واحدة موزعة فى أنحاء متفرقة من العالم ، وبين بعض المخطوطات فروق بالنقص أو الزيادة أو الاضطراب مما يفضى الى الحكم بأن الأدريسى قد ترك مسودات عديدة للكتاب . وكان للمستشرقين فضل اظهار هذا الكتاب وطبعه وتحقيقه ، فطبع دوزى القسم المختص بالمغرب والسودان ومصر والأندلس فى مدينة ليون سنة ١٨٦٤ ، ويذكر

جرجى زيدان — وعنه نقل المرحوم قدرى حافظ طوقان — أن روزن (١) ملر طبع القسم الخاص بالشام وفلسطين سنة ١٨٢٨ فى مدينة ليبسك ، ولا ندرى شيئاً عن هذه الطبعة أكثر من هذا . وطبع آمارى (٢) الايطالى القسم المختص بايطاليا سنة ١٨٨٥ فى مدينة روما ، مع الشروح والتعليق . وطبع كوندى (٣) الاسبانى الأصل العربى مع ترجمة أسبانية ، وهو القسم الخاص بالأندلس وكان ذلك فى مدريد سنة ١٧٩٩ م . ونشر ساقدرا (٤) الاسبانى القسم الخاص بالأندلس ومصر والمغرب والى السودان — وهو الذى نشره دوزى من قبل — ولكنه أعاده مصححاً ومعدلاً ، وكان ذلك فى مدريد سنة ١٨٨١ .

وقد اهتم بعض الرجال بترجمة نزهة المشتاق الى غير العربية . فقام العالمان المارونيان جبرائيل الصسيونى ، وحنا الحصريونى — وهما من أهل لبنان — بترجمة قسم من الكتاب الى اللغة اللاتينية . وطبعت الترجمة فى باريس سنة ١٦١٩ م . وقد ورد اسم العالمين المارونيين محرفاً فى بعض المصادر العربية بناء على خطأ فى الترجمة والتعريب ، فذكره المرحومان الدكتور محمد يوسف موسى والدكتور عبد الحليم النجار باسم : جبرييل

- | | | |
|---|--------------|-----|
| مستشرق المانى توفى سنة ١٨٣٥ . | Rosen Muller | (١) |
| مستشرق ايطالى توفى سنة ١٨٨١ . | M. Amari | (٢) |
| مستشرق اسبانى توفى سنة ١٨٢٠ . | Conde | (٣) |
| مستشرق اسبانى عاش فى نهاية القرن الماضى | Savedra | (٤) |

سيونيتا ، وجون هسرونيثا ١١ وهو من مضحكات الترجمة والنقل ، فإن هذا المسخ هو اسمهما بالأفرنجية ، أما اسمهما بالعربية فكما ذكرناه . ومن العجيب أن الدكتور حسين مؤنس وقع في هذا الخلط ، ولكنه حرف هسرونيثا الى : هزرونيثا ١١ . ولو أنه حقق بعض الشيء لاستبان له الوجه الصحيح في اسم الرجلين . أما الدكتور فؤاد صروف مؤلف كتاب (الرواد) فقد ذكر الاسمين صحيحين هكذا : جبرائيل الصهيوئي الأهدني المتوفى سنة ١٦٤٨ ، والخوري يوحنا الحصري من جبل لبنان . وقد ذكرنا في فصل آخر شيئا عن ترجمة « نزهة المشتاق » الى الفرنسية على يد العالم الفرنسي آميديه جوير (١) : وذكرنا بعض ما قيل فيها من الأخطاء والبعد عن الفهم ، وكونها معيبة غير أمينة . وقد تعرض لنقدها وبيان عيوبها نفر من المستشرقين ، وأشار زيولد ، وألدوميللي ، وكراشكوفسكى . والأمير شكيب أرسلان وغيرهم الى أخطائها .

وقد بان لنا من مطالعاتنا الكثيرة حول الأدريسي أن نزهة المشتاق في بعض أقسامها قد ترجمت الى اللاتينية ، والأسبانية ، والألمانية ، والروسية ، والفنلندية ، والفرنسية ، والإيطالية ، والنمساوية . ولا ندرى ان كان براندل المستشرق السويدي قد

(١) هو المستشرق الفرنسي A. Joubert المتوفى سنة ١٨٤٧ وعلى الرغم من اهتماماته الكثيرة بالشرق وتاريخه إلا أنه كان متسرعاً في أعماله

ترجم قسما من النزهة الى اللسان السويدي أم لم يفعل ، بل
اقتصر على بحثه الخاص بسورية وفلسطين من خلال وصف
الأديسي .

وعلى الرغم من الاسم الطويل لعنوان كتاب الأديسي ، فأنا
نرى الأيجاز يدخل اليه عند بعض المراجع ، ففي كتاب « الوافي
بالوفيات » للمصفي يذكر باسم (كتاب رجار) ! وهو من باب
الغرائب في الأسماء ، فقد نسب الى غير مؤلفه ، بل نسب الى
الملك الذي أوصى به . ويذكره مؤرخنا ابن خلدون في المقدمة
باسم (كتاب رجار) أيضا ، وكأنه أخذ ذلك الاسم من الصفي
الذي كان سابقا له في الوجود . ويذكره ابن خلدون غير مرة
بهذا الاسم . ويسميه بالشيء المستشرق الاسباني باسم الكتاب
الرجاري ، وهو هنا ينقل عن بعض المؤرخين . ويذكر
كراثشكوفسكي الاسمين معا : كتاب رجار . والكتاب
الرجاري . أما ما جاء في بعض الكتب من أن اسمه « الكتاب
الرجاوي » (١) بواو قبل الياء الأخيرة فهو من أخطاء الطباعة
كما لا يخفى .

وعلى الرغم مما خدم به كتاب « نزهة المشتاق » فإنه لا يزال
يحتاج الى عناية أكبر ، والى تحقيق أكثر ، والى معاودة النظر
في كثير مما نشر من نصوصه العربية التي تحتاج الى ضبط

(١) سمي بالكتاب الرجاوي في كتاب « الرحالة المسلمون في العصر
الوسطي » للدكتور زكي محمد حسن ، وهو خطأ مطبعي .

وتحقيق ومقابلة بين النسخ الخطية من الكتاب ومعارضة بينها . ويرى زيولد ضرورة إعادة نشر كتاب الأدريسى الذى يعد اعظم مصنفات العصور الوسطى فى الجغرافيا ، مع ترجمته وشرحه وعمل خرائط هامة له ، ويعتمد فى ذلك على المخطوطات المعروفة لنا من هذا الكتاب فى مكتبات باريس وأكسفورد وأستانبول . وبهذه المناسبة نذكر أن لنزهة المشتاق مخطوطتين فى باريس ، واثنين فى أكسفورد ، وواحدة فى أستانبول . ويرى المستشرق الروسى كراتشكوفسكى أن طبع الكتاب كله كاملا لا يتيسر لاتساع مجال بحثه ودراسته . ويؤكد لنا اقتناع العلماء بصعوبة العمل فى كتاب « نزهة المشتاق » كوحدة قائمة بذاتها ، وذلك لتعدد البلاد التى يصفها ، وتنوع المادة العلمية التى يأتى بها . وردد كراتشكوفسكى رأى القائل بالاقصر على دراسات محددة لكل قطر من الأقطار المختلفة . وذلك هو الاتجاه الذى يجرى عليه العمل الآن .

وقد يكون من الملائم هنا أن نذكر بإيجاز رأى العلماء الأجانب والعرب فى هذا الكتاب الذى يقول عنه « بالنشأ » المستشرق الأسباني : (أن الكتاب حافل بالمعلومات الصحيحة فى الغالب ، ومادته وافرة عن البلاد الأوربية التى تمكنها شعوب نصرانية) . ويقول عنه الباحث الهندى نفيس أحمد : (والكتاب بالتأكيد هو أكبر نموذج بارز لانصهار المعلومات الجغرافية

القديمة مع المعلومات المتجددة) . وتقول دائرة المعارف الفرنسية : (ان كتاب الأدريسى في الجغرافية هو أعظم وثيقة علمية جغرافية في القرون الوسطى ..) ويقول عنه المرحوم الدكتور أحمد أمين في كتابه « فطر الاسلام » : (وألف الأدريسى في الجغرافيا كتابه المشهور « نزهة المشتاق في ذكر الأقطار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق » وشحنه بالخرائط اللازمة التي تزيد عن الأربعين خريطة ، وكان أعظم كتاب في الجغرافيا في زمنه ، ولذلك ترجم الى اللغة اللاتينية وطبع ..) . ويقول عنه المرحوم الأستاذ عبد المتعال الصعيدي : (وهو أصح كتاب وضعه المسلمون في علم الجغرافيا . وقد اشتمل على ما ذكره المتقدمون في هذا العلم ، وجمع اليه ما استفاده صاحبه من تلك الرحلات الطويلة . وكانت له فيها نظرات انتقادية تدل على سعة أفقه ، وتمكنه من الحقائق الأساسية لعلم الجغرافيا مثل كروية الأرض وغيرها) . ويقول عنه الدكتور زكي محمد حسن : (وطبيعي أيضا أن يستأثر كتاب الأدريسى بغزارة مادته في جغرافية المغرب وصقلية مما يشهد له بأنه ساح في تلك الآفاق . أما فيما يخص الشرق فقد نقل كثيرا عن سبقه من المؤرخين ، ومع ذلك كله فأن ما كتبه عن مصر والشام وفرنسا وإيطاليا وألمانيا والأراضي المطلة على البحر الادرياتيكي يشهد بأنه أفاد كثيرا من سياحاته الخاصة أو سياحات غيره من الرواد ..) ونختتم هذه

الآراء المنصفة برأى المستشرق الفرنسى دى سلان (١) الذى أبداه فى خلال بحث له نشر بالمجلة الآسيوية الفرنسية عدد أبريل سنة ١٨٤١ م يقول فيه : (ان كتاب الادريسى لا يمكن أن يوازن به أى كتاب جغرافى سابق له ، وان ثمة بعض أجزاء من المعمورة لا يزال هذا الكتاب دليل المؤرخ والجغرافى فى الأمور المتصلة بها).

ويجد القارئ فى غير هذا الفصل دفاعنا عن كتاب « نزهة المشتاق » بصدد ما اتهمه به بعض المستشرقين — وخاصة بالنشأ الأسبائى — من أنه يشتمل على بعض الخرافات .

مؤلفات أخرى

ذكر الباحثون والمشتغلون بدراسة الأدريسى ، كتباً أخرى له غير « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » . ففي دائرة المعارف الإسلامية ينبهنا المستشرق زيولد في خلال المادة التي كتبها عن الأدريسى الى أن هناك كتاباً للأدريسى صنعه للملك غاليوم الأول الذي خلف الملك روجر الثاني على حكم صقلية ، واسم هذا الكتاب « روض الأنس ونزهة النفس » . ويصف زيولد هذا الكتاب بأنه ضخيم، كما يذكر أن لهذا الكتاب اسماً آخر هو كتاب « الممالك والمسالك » . ولم يبق من هذا المصنف الا مختصر في مكتبة حكيم أوغلو على باشا بمدينة استنبول تحت رقم ٦٨٨ . وي زيد زيولد فيقول أن أول من أشار الى هذا الكتاب المستشرق هورفتز عند ما كان ينقب في مكتبات استنبول باحثاً عن مخطوطات في التاريخ

ويذكر الدكتور احسان عباس في كتابه « العرب في صقلية »

اسم هذا الكتاب من كتب الادريسي ، ويقرر في الهامش أنه نقل هذا عن «خريدة القصر» للعماد الأصبهاني . ولكننا لم نطلع على مخطوط الخريدة الذي يشتمل على هذا النص . وأشار إلى « روض الأنس ونزهة النفس » أيضا الدكتور شوقي ضيف في كتابه « الرحلات » ، ثم ذكره باسمه الآخر : المسالك والممالك ، كما فعل زيولد في مادة الادريسي بدائرة المعارف الاسلامية . وأشار المستشرق الايطالي ألدو مييلي في كتابه «العلم عند العرب» الى كتاب « روض الأنس ، ونزهة النفس » هذا ، وذكر أنه لم يبق منه الا مختصر صغير هو كتاب « روض الفرج ، ونزهة المهج » جمعه مصنف مجهول سنة ١١٩٢ م .

ونرى المستشرق الأسباني بالنشيا يذكر في كتابه « تاريخ الفكر الاندلسي » أن الادريسي ألف كذلك « كتاب الممالك » الذي اعتمد عليه أبو الفدا . ولا نعلم نحن أن للشريف الادريسي كتابا في الجغرافية باسم الممالك كما يذكر بالنشيا ، ولعله يقصد كتاب « المسالك والممالك » الذي هو عند زيولد اسم آخر أو عنوان آخر لكتاب « روض الأنس ونزهة النفس » . ويشير الدكتور فؤاد صروف في كتابه « الرواد » ص ٤٦ الى كتاب « روض الأنس ونزهة النفس » ويصفه بأنه أعم من كتاب « نزهة المشتاق » ، واستعان به أبو الفدا ، وسماه كتاب « الممالك » . ويذكر صروف أن هذا الكتاب لا وجود له الآن ، وان كان يقال

ان منه نسخة في مكتبة باريس الملكية .. وعجيب أمر كتاب الممالك هذا ، فالمستشرق زييولد يسميه . الممالك والمسالك ، وشوقي ضيف يسميه : المسالك والممالك ، بتقديم أحد اللفظين على الآخر . والمستشرق بالنشيا يسميه كتاب : الممالك ، وفؤاد صروف يسميه كتاب الممالك .

ويجىء كراتشكوفسكى فيذكر كتاب « روض الأنس ونزهة النفس » هذا ، ويقرر انه فيما عدا العنوان لا نكاد نعرف عن هذا المصنف الا شذرات قليلة حفظها لنا في القرن الرابع عشر أبو الفداء الذى أطلق على الكتاب عادة اسم « كتاب المسالك والممالك » . والحق أن كراتشكوفسكى قد نقل هذا الكلام عن رينو (١) الفرنسى في كتابه المشهور عن أبى الفداء . ويكرر كراتشكوفسكى ما ذكره ميلى من أن « روض الفرج ونزهة المهج » . هو قطعة من كتاب روض الأنس ، أو الممالك والمسالك ، كما وصفه بأنه يحتوى على أطلس كامل من ثلاث وسبعين خارطة ، وقد عرف هذا المصنف فى الدوائر العلمية باسم الأدريسى الصغير ، وذلك للتفريق بينه وبين كتابه الرئيسى المعروف باسم « نزهة المشتاق » .

ويذكر المرحوم قدرى حافظ طوقان أن للأدريسى كتاب

(١) هو المستشرق الفرنسى Reinaud المتوفى سنة ١٨٦٧ ومشاوكلاته فى الجغرافة العربية لا تذكر .

« روض الفرج ، ونزهة المهج » ، وهو مختصر لكتاب نزهة المشتاق .. هكذا قال المرحوم طوقان ، والمعروف — كما قال الدوميلي — أن « روض الفرج ونزهة المهج » هو مختصر لكتاب : « روض الأنس ، ونزهة النفس » .

ونجد عند الدكتور حسين مؤنس كلاما يلتقى مع مذكره كراتشكوفسكى فيقول : (كتاب « روض الأنس ونزهة النفس » ، أو كتاب « المسالك والممالك » . ولم نعر عليه ، ولكن لدينا مختصرا له في مكتبة حكيم أوغلو في استامبول برقم ٦٨٨ . ولهذا المختصر عنوانان : أحدهما في أوله وهو : « أنس المهج وروض الفرج » ، والثاني في آخره ، وهو : « روض الفرج ونزهة المهج » ويسمى هذا المختصر بالأدريسي الصغير ، تميزا له عن نزهة المشتاق الذي يسمى الأدريسي الكبير (١) . كما يلتقى هذا الكلام مع ما سبق أن سجلناه هنا من كلام المستشرق زيبولد في دائرة المعارف الاسلامية .

وقد دخل الشريف الادريسي ميدان علم النبات ، فألف فيه كتابا عنوانه « الجامع لصفات أشتات النبات » . وقد ضمنه ذكر أنواع المفردات من الأشجار والثمار والحشائش والأزهار والحيوانات والمعادن ، مع تفسير معجم أسمائها بالسريانية

(١) مجلة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، المجلدان ٩ ، ١٠ ص ٣١٩

واليونانية والفارسية واللاتينية والبربرية . وقد جاء في أوله :
(الحمد لله الذى أحاط بكل شىء علما ، وأحصى كل شىء عددا .
وبعد . فان أناسا من أهل زماننا يدعون ما لا علم لهم به ،
وينتسبون الى معرفة الحشائش والأشجار والمعادن والحيوانات
التي هي هوى الطب وعمدته ، ويزعمون معرفة ما ترجمة
الفاضل دياسقوريدوس في كتابه ، وشرح مبهمه الى ما دونه من
سائر الكتب المؤلفة في هذا الفن .. ولما رأيت انهم خلطوا
وغلطوا ، صرفت نفسي ، وأوقفت همى ، فألفت عند ذلك هذا
الكتاب ، ورتبت جميع أسمائه على نص حروف أبجد هوز ..) .

ويوجد من هذا الكتاب نسخة في دار الكتب المصرية
— ١٥٢٤ — مصورة عن مكتبة الفاتح بأستنبول رقم ٣٦١٠ ،
كما أن منه نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية .

وقد أشار « الدوميللى » الى أن للأدريسى كتاب الصيدلة
المبدوء بمقدمة عامة تتسم بطابع البحث في النباتات ، وكشف عنه
أخيرا في مخطوط بمكتبة في استنبول . وقد ترجم مايرهوف بعض
مقتبسات منه ، وقدم فكرة عامة عن الكتاب كله في دراسة لعلم
النبات العام والصيدلة عند الأدريسى . كما أشار الى هذا الكتاب
أيضا المستشرق كراثشكوفسكى ، وذكر رأى مايرهوف فيه ،
وأنه لا يخلو من بعض الأهمية ، ولو أنه لا يمكن وضعه في
مرتبة واحدة مع المصنفات الممتازة في هذا الباب كرسالة البيرونى .

ومن الطريف أنه لا يرتبط في شيء باسم ثيوفراست الذي يرجع إليه العرب عادة في هذا الفن ، أو بكتاب النبات المنسوب لأرسطو . ويلى مقدمة الكتاب وصف لثلاثمائة وستين نباتا لا يخلو من بعض القيمة من وجهة علم النبات Botany . وأشار الدكتور أحسان عباس الى كتاب « الجامع لأشتات النبات » ، ولم يقطع بأن الادريسي ألفه في صقلية . وقد أشار ابن أبي أصيبعة في كتابه « عيون الأنباء » ، في طبقات الأطباء . الى كتاب للادريسي في « الأدوية المفردة » ، ولم يذكر له غيره من كتب الجغرافية والنبات ، لأنه اهتم بالكتب التي تدخل في مجال الطب والأطباء . وقد أشار بالنشأ الى كتاب «الأدوية المفردة» أيضا ، ولعله نقل ذلك عن « عيون الأنباء » . ولا ندري كيف فات المستشرق كراتشكوفسكى أن يشير الى كتاب الأدوية المفردة للادريسي مع حرصه على ذكر كل شيء يتعلق بهذا العربى العظيم ؟

خريطة الإدريسي ومسراته الجغرافية

إن الخريطة التي حُفرت على أسطوانة من الفضة والتي صنعها الإدريسي بمعاونة روجر الثاني وتشجيعه هي غير الكرة من الفضة التي عفى عليها الزمان ولم يبق عليها ، بل أبقى على اسمها وبعض أوصافها . ويظهر أن الإدريسي وضع لكل قسم من أقاليم العالم السبعة خريطة خاصة ، بالإضافة إلى الخريطة العامة التي استخرج منها « كونراد ميلر » طبعة كاملة نشرت في استوتجارت ما بين عامي ١٩٢٦ ، ١٩٣١ .

ويحدثنا المستشرق الإيطالي «الدومينيلى» عن المرحلة الثالثة لصنع الخرائط الجغرافية العربية ، وهي المرحلة التي يمثلها الجغرافى العربى الشريف الإدريسي . وتبدو في هذه الخريطة العناية بالجغرافية الرياضية ، كما أن الرسم فيها تتسع دائرته فلا يقتصر

على إقليم من الأرض أو على مجموع الأقطار الإسلامية ، بل
يشمل كل العالم المعروف في زمانه .

وحين نشيد هنا بذكر الإدريسي في عمل هذه الخريطة
المشهورة ، فلن ينسينا ذلك الاتساع بذكر روجر الثاني الذي
شارك في إعداد الخريطة الكبيرة للإدريسي ، والذي ساعد — بما
له من سلطان الملك ووفرة المادة — على جمع المعلومات وتجميع
المعارف الجغرافية التي استغلها الإدريسي واستخدمها في صنع
الخريطة .

وقد نالت خرائط الشريف الإدريسي عناية كبيرة من دراسات
المستشرقين ورجال البحث العلمي الجغرافي . وهي بالطبع في مكان
التقدير على الرغم مما وجه إليها من ملاحظات ونقادات . ولم يكن
الإدريسي أول من صنع الخرائط الجغرافية من العرب والمسلمين .
فقد سبقته في ذلك جهود حين بدأ العرب برسم الخرائط في
صدر الدولة العباسية عقب ترجمة كتب الفلك والجغرافية إلى
اللغة العربية . وكان قياس العرض والطول هو الأساس الذي
أقيم عليه أول رسم للخرائط العربية ، ولعل صاحب المبادرة
الأولى في هذا الميدان هو محمد بن موسى الخوارزمي من أكبر
علماء الرياضيات في عصر المأمون ، فإنه عين مواقع المدن والبحار
بالدرجات الجغرافية المؤسسة على علم الفلك كما فعل بطليموس .
وفي خطوة تالية لصنع الخرائط عند العرب أهملت درجات العرض

والطول .. وكانوا يجدون صعوبة في تحديد الأماكن بالأقيسة
فاكتفوا بتعيين مواقع البلاد بالنظر الى الجهات الأربع الأصلية
بغض النظر عن تقدير الأبعاد بينها . ولم يكن الشمال في أعلى
الخرائط ، والجنوب في أسفلها ، والشرق في يمينها ، والغرب على
يسارها كما نجده في الخرائط اليوم ، بل قد نجد الشمال في أعلى
زاوية اليمين ، ويقابله الغرب في أعلى زاوية اليسار ، كما
في خريطة بين النهرين المنقولة عن الأصطخرى .

وفي خرائط الأدريسى نجد تطور عمل الخرائط العربية في
ثالث مراحلها . وبدأت دقة رسم الشواطئ والأنهار ، وتحديد
درجات الطول والعرض ، ومطابقة الواقع الطبيعي . وعلى الرغم
من مراعاة الأدريسى لطريقة بطليموس في رسم الخرائط فإنه قد
زاد عليه في الدقة وارتفاع المستوى في الأداء ، ويؤكد لنا هذه
الحقيقة المستشرق الإيطالي : ألدو ميللي (١) .

وقد انضم كراتشكوفسكى الى الدوميللي في حسابان مرحلة
الأدريسى هي الأوج الذي بلغه فن رسم الخرائط الجغرافية عند
العرب . وعلى الرغم من بعض المآخذ التي أخذت على خرائط
الأدريسى فإن أطلسه يعد أهم أثر لعلم رسم الخرائط العربية .
بل لعلة أهم أثر لعلم الخرائط الجغرافية في العصور الوسطى

(١) العلم منذ العرب ، ص ٣٩٤ .

بأجمعها . وإذا كانت هذه الشهادة الأخيرة هي ما فاه به المستشرق النمساوي « مچيك » من علماء القرن العشرين ، وقد نقلها عنه المستشرق الروسي كراتشكوفسكى ، فإن هناك شهادة أخرى للمستشرق الفرنسى « ريسلر » الذى يقول فى كتابه « الحضارة العربية » : (.. ومصورات الادريسي التى تعترف بكروية الأرض كانت تتويجا لعلم المصورات الجغرافية فى العصر الوسيط . بوفرتها ، وصحتها ، واتساعها) .

ولا يفتأ المستشرق الايطالى «الدومبيللى» يشيد بعمل العرب والادريسي خاصة فى تطوير علم صناعة الخرائط وتحسين ما وصل إلينا من بطليموس فى هذا الصدد . ما أكثر انصاف هذا المستشرق العميق البحث وهو يقول : (وبواسطة الدلائل الجغرافية لبطلیموس نفسه ، عرف العرب أيضا وضع الخرائط وضعا علميا مبنيا على تعيين الطول والعرض فى العناصر الجغرافية المختلفة ، حيث وصلوا بذلك — على يد الادريسي — الى تحقيق خطوة جديدة بالاعجاب حقا فى هذا الفن الذى هو فرع عظيم الأهمية من الجغرافية العلمية) (١) .

ويشير باحث هندي معاصر هو الأستاذ نفيس أحمد الى جهود الشريف الأدریسی فى ميدان تقدم صناعة الخرائط الجغرافية .

(١) العلم عند العرب : الدومبيللى ص ٤٦ .

ويصفه بأنه من غير شك من صناعات الخرائط المشهورين (١) كما يشير في موضع سابق من كتابه الى صنعه للقرص الذي يمثل نموذجا للعالم المعروف في عصره ، مما أبرز مكائته بين صناعات الخرائط المسلمين . ولا ينسى هذا الباحث المسلم أن يشير الى السبعين خريطة التي أعدها الإدريسي للمناطق الداخلية في تقسيمه للأقاليم .

ويركز المرحوم قدرى حافظ طوقان حديثه عن الخريطة الجغرافية التي رسمها الإدريسي ، ويجمع عناصر وصفها مما قرأه عنها في كتاب الأستاذ عبد الله كنون المغربي عن الشريف الإدريسي ، وما ورد خاصا بها في كتاب « تراث الاسلام » ، ودائرة المعارف الاسلامية ، وما نشر من مقالات في مجلات المقتطف ، والرسالة ، ويخرج بعد الوصف الدقيق للخريطة وتقسيم العالم فيها بأن علماء الجغرافيا والباحثين في أوروبا وأميركا قد قدروا عبقرية الإدريسي في رسم خريطته ، فقد حاول بتقسيمه الأرض الى الأقاليم السبعة اثبات درجات العرض وتحديداتها ، وأنه أفلح في هذه المحاولة الى حد بعيد (٢) .

وقد يكون أضبط في التعبير عن الناحية الفنية من خريطة الإدريسي أن ننقل هنا بعض ما وصفه بها المرحوم قدرى حافظ

(١) جهود المسلمين في الجغرافيا من ١٤٣ .

(٢) العلوم عند العرب لقدري حافظ طوقان . ص ١٨٨ .

طوقان قائلا : (لقد قسم الادريسي كلا من الأقاليم السبعة الى عشرة أقسام متساوية من جهة الغرب الى جهة الشرق . وهذا التقسيم وان لم يدل على درجات الطول فانه يسهل القيام بالمهمة ، ويعين على رسم الخريطة .

وقد وضع لكل قسم من هذه الأقسام السبعين خريطة خاصة ، زيادة على الخريطة الجامعة . وهذه الخرائط السبعين — كذا — محفوظة في مختلف النسخ الموجودة من كتاب نزهة المشتاق ، ومنها استخرج ميلر خريطة الادريسي ونشرها بالحروف اللاتينية (١) .

وظلت خريطة الادريسي قرونا غير قليلة مرجعا لعلماء أوروبا في علم الجغرافية . ويؤكد هذا ما قاله جوتيه : (انه لم يكن لأوروبا مصور جغرافي للعالم الا ما رسمه الادريسي ، وهو خلاصة علوم العرب في هذا الفن ، ولم يقسح الادريسي في الأغلاط التي وقع فيها بطليموس في هذا الباب) .

والحق أنه لم تكن أوروبا وحدها هي المستفيدة من خريطة لادريسي الكبرى وخرائطه الأخرى السبعين ، فقد ظلت رائدا لصناع الخرائط العرب بعد ذلك . ولاشك أن ازدهار عمل الخرائط والمصورات الجغرافية في تونس وشمال أفريقية بعد القرن الخامس عشر الميلادي يرجع الى متابعة القوم هناك لصناعة

(١) العلوم عند العرب : قدرى حافظ طوقان . ص ١٨٨ .

الأدريسى وعمله الكارتوجرافى . ويشير كراتشكوفسكى الى أجيال ثمانية أو تسعة من أسرة الشرفى الصفاقسى بتونس شاركت فى صنع خرائط جغرافية تأثر فيها أفرادها بطريقة الأدريسى فى عمل الخرائط .

وفى القرن التاسع عشر يظهر مؤرخ مغربى اسمه أبو القاسم ابن احمد الزيانى — توفى سنة ١٨٣٣ م — فىقوم على الرغم من كبر سنه برسم خريطة الأدريسى بدائية كل البداءة ، ولكنه يحذو فيها حذو الشريف فيقسم العالم الى سبعة اقاليم . وعلى الرغم من سذاجة هذه الخارطة فانها تمثل الاتجاه الى تقليد الأدريسى فى صنع الخرائط بعد أن مضت عليه القرون .

أما خريطة الأدريسى التى يصور بها منابع النيل فيشير اليها غير واحد من الباحثين الأجانب والمسلمين . ويصفها المرحوم عباس محمود العقاد قائلاً : (ولا يعرف أن أحدا سبق الأدريسى الى بيان الحقيقة عن منابع النيل العليا ، كما حفظت فى الخرائط التى بقيت فى بعض المتاحف الأوروبية ، ومنها خريطة محفوظة بمتحف سان مرتين الفرنسى ترسم النيسل آتيا من بحيرات الى جنوب خط الاستواء ، بعد أن تخطط الجغرافيون فى وصف منابعه ، وتعليل فيضائه منذ أيام هيرودوت الملقب بأبى التاريخ) (١) .

(١) انظر العرب فى الحضارة الأوروبية لعباس محمود العقاد ، ص ٤٦ .

ويخطو الاستاذ عباس محمود العقاد في تقدير الخرائط الجغرافية العربية وخرائط الادريسي خطوة أخرى أبعد من هذا فيقرر انه من هذه الخرائط المرسومة والآراء النظرية تلقى كريستوف كولمبس صورته عن الكرة الأرضية ، وتخيّل أن الأرض كثرة الكمثرى المستطيلة ، ترتفع قممتها في الهند ، وترتفع لها قمة أخرى مقابلة لها في مكان آخر يشبه اقليم الهند بمناخه وثمراته ومحصول أرضه ومائه .. وهو فضل يحسب للعرب في كشف العالم (١) الجديد ..

ولا يفوتنا هنا أن نختم هذا الفصل باتجاه همم العرب اليوم الى احياء خريطة الادريسي وردها الى أصلها العربي الصحيح . وكان للمجمع العلمي العراقي ببغداد فضل المبادرة في هذا الميدان، فقام بعض أعضائه ، وهما الأستاذ محمد بهجت الأثرى ، والدكتور جواد علي بعبء هذا العمل المجيد ، بعد الرجوع في التحقيق والتصحيح الى خمس نسخ مصورة من كتاب « نزهة المشتاق » ، وطائفة من كتب الجغرافية العربية القديمة . وكانت استدراكات المحققين على « ميلر » وبيان اختلاف النسخ أهم ما في هذا الإنجاز الجديد من آثار . وتبلغ مساحة هذه الخريطة في ثوبها الجديد مترين مربعين بطول مترين في عرض متر واحد . وكان

(٣) المصدر نفسه ص ٤٧ .

صدر هذه الخريطة المحققة للشيخ الأديسي عن المجمع العلمي
العراقي في سنة ١٩٥١ .

وليت الاهتمام بخريطة الأديسي يؤجج الاهتمام بكتاب
« نزهة المشتاق » ، فيخرج على الوجه الذي نود أن يخرج عليه
بعد أن يتسنا من الحصول على نسخة واحدة محققة منه ، يطمئن
اليها الباحث ، ويفيد منها الدارس .

كرة أرضية من الفضة

لقد تحدث الشريف الأدريسى نفسه في مقدمة كتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » عن الكرة الأرضية من الفضة التي أمر الملك روجر الثانى بصنعها ، والتي أشرف الأدريسى نفسه على عملها بوساطة الفعلة الماهرين . وندع الأدريسى نفسه يتحدث عن هذه الكرة الأرضية بقوله : (فأمر عند ذلك أن يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصلة عظيمة الجرم ، ضخمة الجسم في وزن أربعمائة رطل بالرومى ، في كل رطل منها مائة درهم واثنا عشر درهما . فلما كملت أمر الفعلة أن ينقشوا فيها صور الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها ، وسيفها ورينها ، وخليجائها وبحارها . ومجارى مياهها ، ومواقع أنهارها ، وعامرها وغامرها ، وما بين كل بلد منها وبين غيرها من الطرقات المطروقة ، والأميال المحدودة ، والمسافات المشهورة ، والمراسى المعروفة ، على نص

ما يخرج اليهم ممثلا في لوح الترسيم . ولا يغادروا منه شيئا ،
ويأتوا به على هيئته وشكله كما يرسم فيه) .

وكانت هذه الكرة الأرضية ولا تزال موضوع الحديث عند
الباحثين الذين يتحدثون عن الأدريسى في معارض مختلفة .
وتناولها الكتاب والمؤرخون من زوايا مختلفة من وجهات نظرهم ،
ثم زاد بعضهم فأضفى عليها من الزيادة والخيال ما يسمح به
المجال . ولعل جرجى زيدان هو أول من لفت الأنظار من الباحثين
العرب المحدثين الى هذه الكرة الفضية ، فنقل بعض أوصافها
السابقة عن كتاب « نزهة المشتاق » للشريف الأدريسى . ولم
يفت المرحوم أحمد زكى باشا أن يشير الى هذه الكرة في بحثه
الذى نشره بالمقتطف سنة ١٩١٢ عن جغرافية الشريف الأدريسى .
ويصادفنا في كتاب « معجم المطبوعات العربية والمعربة » ليوسف
أليان سركيس وصف وجيز لهذه الكرة نقله عن كتاب « تاريخ
سورية » للمطران يوسف الدبس . ولما أصدر الأمير شكيب
أرسلان كتابه « الحلال السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية »
ونقل فيه وصف الأدريسى لبلاد الأندلس ، لم يفته أن يشير في
إيجاز الى الكرة الأرضية من الفضة التى صنعها الأدريسى للملك
ووجر الثانى الصقلى (١) . وحين ترجم المرحوم محمد كرد على
للسلاح الصندى في كتابه « كنوز الأجداد » لم يفته أن ينقل

(١) الحلال السندسية ج ١ ص ١١٩ .

النص الذى كتبه الصفدى عن الملك روجار الثانى حين استقدم
الأدريسى من عدوة المغرب (ليصنع له شيئا فى شكل صورة
العالم ، فلما وصل اليه أكرم نوله ، وبالف فى تعظيمه . فطلب منه
شيئا من المعادن ليصنع منه ما يريد ، فحصل اليه من الفضة الحجر
وزن أربع مائة ألف درهم ، فصنع منها دوائر كهيئة الأفلاك ،
وركب بعضها على بعض ، ثم شكلها له على الوضع المخصوص ،
فأعجب بها رجار ، ودخل فى ذلك ثلث الفضة وأرجح بقليل ،
وفضل له ما يقارب الثلثين ، فتركه له اجازة) .

ويشير المرحوم الدكتور زكى محمد حسن الى هذه الكرة (١)
قائلا : (ووقع اختياره — يعنى روجر الثانى — على الشريف
الأدريسى ليصنف له كتابا فى وصف الكرة الأرضية الفضية التى
صنعت له ، مرسوما عليها جميع الأقاليم المعروفة حينئذ) . وحين
تحدث الأستاذ فؤاد صروف فى كتابه « الرواد » عن الأدريسى
أشار الى هذه الكرة قائلا : (وعمل له — يعنى لروجر الثانى —
ذات حلق وكرة مسطحة من الفضة ، زئتها ثمانى مائة مارك رسم
عليها جميع أقاليم وأقطار المعمورة المعروفة فى عهده (٢) . أما
المرحوم عباس محمود العقاد فلم يفته أن يتحدث عن هذه الكرة

(١) الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى : للدكتور زكى محمد

حسن ص ٦٤ .

(٢) الرواد فؤاد صروف ص ٤٦ . طبعة ثانية .

الفضية قائلًا : (وصنع له الملك كرة فضية تمثل كرة الأرض زنتها أربعمائة رطل رومى ليتخذها مثالًا لما يثبت من معالم الكرة الأرضية (١) وكذلك فعل المرحوم قدرى حافظ طوقان في الفصل الذى عقده عن الجغرافيا عند العرب فى كتابه «العلوم عند العرب» فقد أشار الى هذا الانجاز قائلًا : وعمل لروجر خارطة على كرة مسطحة من الفضة ورسم عليها الاقاليم والاقطار التى كانت معروفة فى زمانه (٢) وظهر كتاب حديث للأستاذ المغربى عبدالله ابن العباس الجرارى عنوانه «تقدم العرب فى العلوم والصناعات وأستاذيتهم لأوربا» أشار فى خاتمته الى الادريسي قائلًا عنه انه صنع للملك روجر الثانى (كرة من الفضة رسم عليها أنحاء الأرض المعروفة لعهد) (٣) .

أما المؤرخ العربى اللبنانى الدكتور فيليب حتى ، فقد أوجز الإشارة الى هذه الكرة الفضية فى كتابه المشهور « تاريخ العرب » قائلًا : (وعلاوة على هذا الكتاب — يعنى نزهة المشتاق — فإن الادريسي صنع لولى نعمته النورمندى كرة سماوية وخريطة للعالم فى شكل قرص ، وكلاهما من الفضة) (٤) .

(١) اثر العرب فى الحضارة الاوربية ، لعباس محمود العماد ص ٤٦ .

(٢) صفحة ٦٨

(٣) صفحة ٢٤٤ من كتاب « تقدم العرب » .

(٤) تاريخ العرب ، لحتى ص ٧٢٢ .

ويظهر أن نشوة المبالغة لم تفت بعض باحثينا الناشئين ، ففي كتاب «مآثر العرب على الحضارة الأوربية» لم يكتف المؤلف بأن يجعل كرة الأدريسى من الفضة كما أجمع المؤرخون القدامى والمحدثون ، فجعلها كرة جغرافية من ذهب (١) ، وكأنه استرخى الفضة على قدر الملك روجر الثاني ، وعلى قدر الشريف الأدريسى نفسه ، فحولها الى كرة من الذهب . وفي القسم الموسوعي من معجم « المنجد » ان الأدريسى رسم للملك روجر الثاني ما عاينه من البلدان على كرة من فضة ..

ونلاحظ من عرض هذه الأقوال في صفة الكرة من الفضة التي ألجزها الأدريسى للملك روجر الثاني أن هناك بعض الأسئلة التي يمكن اثارتها حول هذه القضية . فالنص الذي كتبه الأدريسى نفسه في مقدمة كتابه « نزهة المشتاق » لا يحدد لنا على سبيل اليقين من الذي صنع هذه الكرة من الفضة . ويؤخذ منه أن الفعلة هم الذين نقشوا عليها صور الأقاليم . وليس الفعلة هنا مجرد صناع عاديين ممن صبوا جسم الكرة من الفضة ، ولكنهم على ما يبدو متخصصون في رسم الخرائط والمصورات . وبالطبع كانوا يعملون تحت توجيه الأدريسى وأشرافه ومعرفته بالجغرافية . ويبدو أن الشريف الأدريسى أراد أن ينسب ذاته في مقدمته لنزهة المشتاق ، حتى ينسب الفضل كله للملك روجر الثاني كما

(١) مآثر العرب على الحضارة الأوربية ، للأديب جلال مظهر ص ١٥٨

يبدو في استهلال المقدمة . ولعل النص الذى كتبه المؤرخ الدقيق صلاح الدين الصفدى ونقله الأستاذ محمد كرد على هو أصرح في الدلالة على أن الأدريسى نفسه هو الذى شكل هذه الكرة على الوضع المخصص .

ويبدو من كلام الدكتور زكى محمد حسن أن الكرة الفضية صنعت للشريف الأدريسى مرسوما عليها الأقاليم المعروفة في عهده، وأن دور الأدريسى لم يكن الا تأليف الكتاب الذى يصف هذه الكرة . وكأنه — رحمه الله — نفى أى مشاركة أو توجيه من الأدريسى في عمل هذه الكرة . ويستدل من كلام فؤاد صروف محرر المقتطف القديم أن « هذه الكرة من الفضة مسطحة » ، ولن تكون كرة مسطحة الا اذا كانت على شكل قرص أو رضى ، وهذا المفهوم لمعنى التسطیح في الكرة هو الذى جعل الدكتور « فيليب حتى » يجعل الكرة السماوية وخريطة العالم على شكل قرص .

وبمناسبة الكرة السماوية نلاحظ أن الدكتور « فيليب حتى » يكاد يكون الوحيد الذى أشار الى كرة سماوية لا أرضية فهل صنع الأدريسى كرة للسماء غير الكرة التى صنعها للأرض ووصفها في مقدمة كتابه ؟ وهل جاء هذا الوهم من وصف صلاح الدين الصفدى في كتابه « الوافى بالوفيات » لهذه الكرة بأن الأدريسى (صنع منها دوائر كهيئة الأفلاك) ؟ والا لماذا انفرد

الدكتور « حتى » من بين الباحثين والمؤرخين جميعا بأن هناك كرة سماوية بجانب خريطة للعالم على شكل قرص ؟

ولا أكاد أذكر أنني وقعت على باحث غير عربي جعل كرة الأدريسى سماوية ، الا ما ذكره المستشرق الكبير كراتشكوفسكى من (أن العمل في كتاب الأدريسى قد مر بثلاثة أطوار ، وخلف وراءه ثلاثة آثار : أحدها أنموذج فريد في نوعه للكرة السماوية ، وهو عبارة عن قرص من الفضة مرسوم عليه صورة العالم (١) .

رقد سكت المستشرق الروسي « بارتولد » سكوتا تاما عن وصف كرة الأدريسى الأرضية أو السماوية ، فجعلها (كرة كبيرة مجسمة من فضة) (٢) ولا لدرى الحكمة في هذا السكوت ، أهو مقصود للتخلص ، أم هو اكتفاء بشيء مفهوم ؟ وقد تحولت الكرة من الفضة عند المستشرق الايطالى « الدوميللى » الى (رسم لسطح الأرض كان منقوشا في لوح من الفضة) (٣) . ولعل هذا اللوح الفضى عند ميللى هو القرص من الفضة عند الدكتور حتى ، وهو الكرة المسطحة من الفضة عند الأستاذ فؤاد صروف .

(١) تاريخ الادب الجغرافى العربى - تأليف كراتشكوفسكى ص ٢٨٣ .

(٢) تاريخ الحضارة الاسلامة لبارتولد ص ٥٧ .

(٣) العلم عند العرب : تأليف الدوميللى ص ٢٨٧ .

ومهما كان من أمر فإن الكرة الفضية التى عماها الأدريسى
— أو عملت تحت اشرافه وتخطيطه وتوجيهه — لم تستطع أن
تقاوم الزمان ، فقد ذكر كراتشكوفسكى نقلا عن « ميلر » أن
الثوار حطموها ونهبوا أجزائها عند اقتحامهم لقصر روجر الثانى
فى عهد خلفه سنة ١١٦٠ م .

ولو ان هذه الكرة الثمينة بقيت وسلمت من الحدثان لوفرت
علينا عناء الاختلاف فى وصفها ، ولأراحتنا من الاضطراب فى
صفتها على نحو ما ذكرناه .

ولا مجال هنا أكثر لملاءمة من الإشارة الى أن المؤرخ
الحضارى جون درابر قد أشار فى كتابه « تطور أوربا الفكرى »
الى أن عرب أسبانيا كانوا يعلمون مادة الجغرافية فى مدارسهم
العامة على كرات أرضية جغرافية . ولعل كرة الأدريسى كانت
وحى هذه الطريقة فى مدارس الأندلس . ومنذ ذلك الحين أخذت
الكرات الأرضية والسماوية تنتشر ويعم تداولها فى أقطار الأرض
العربية ، وصار الناس يتهادونها كما تتهادى الكتب والألطاف .

ولم يسكت الشعر عن تسجيل هذه الظاهرة ، وفى الشعر
سجل لأحوال وعادات اجتماعية كثيرة قد نخطئها فى غيره ، فقد

أهدى شاعر الى الشاعر المصري جمال الدين بن مطروح المتوفى
سنة ٦٤٦ هـ كرة أرضية واسطرلابا لمحيط السماء ، وكتب اليه :

كرة الأرض مع محيط السماء

لك أهديت يا كريم الاخفاء

واذا ما قبلتها فلك المنية

عندي يا أكرم الكرماء !

بين الأصالة والنقل

حينما كتب المستشرق الروسي مينورسكى (١) مادة «الروس» في دائرة المعارف الاسلامية لم يفته في خلال ذلك الفصل أن يشير الى الأدريسى اشارة طيبة ، فقد عده (الكاتب الوحيد الذي يمدنا بمعلومات أصيلة عن الروس بعد القرن العاشر ، فهو يتناولهم في كلامه عن الأقليم السادس القسم الخامس « نهر الروس ، والمدن التي على نهر الدنيبر » وعن الأقليم السابع القسم الرابع والقسم الخامس « منابع الدنيستر ، الروسية ، وقومانيا أى أرض القومان » . ووصف معلومات الأدريسى هنا بأنها « أصيلة » يحمل شهادة جيدة ممن يملكون الشهادة من أهل الروس . وبانطبع كانت المعلومات التي دونها الأدريسى في كتابه « نزهة المشتاق » ، في اختراق الآفاق « هي تلك المواد العلمية التي جمعها

(١) هو العالم المحقق لتاريخ فارس : Minorsky الموفى سنة ١٨٧٧ وقد خلفه أدبرى في الاستاذية بجامعة لندن .

له بالمشاهدة والمعاينة أولئك الرسل الذين أوفدهم الملك روجر
الثانى الى أحشاق مختلفة من الأرض ليجمع مبادىء ودراسات
وملاحظات يدونها الجغرافى العربى فى كتابه .

ولا شك ان الرواد والرسل الذين بعثهم روجر الثانى الى
الإقاليم المختلفة وخاصة فى أوربة ، وأقصى أطرافها مثل اسكتلندا
— كانوا يجسعون البيانات وأوصاف البلاد وتنقيق معالها بعد
ان تغربل معلوماتهم ويقابل بعضها ببعض . وكانت عملية الغربة
هذه يقوم بها الأدريسى نفسه كآخر خطوة للجمع . وبهذا امتاز
الأدريسى على من سبقه من الرحالة والجغرافيين المسلمين بأنه
أضاف الى المعارف المعروفة فى وقته معارف جديدة لم يأت بها
سابقوه من الجغرافيين . ولا شك أن الدقة والأصالة التى تمتاز
بها معلومات الأدريسى عن بعض بلاد أوربا وظواهرها الطبيعية
ترجع الى معاينة الرواد المبعوثين من ناحية ، والى بصره هو
بعملية النخل والغربة من ناحية أخرى .

ولقد أفادت معارف الأدريسى الجغرافية عن أوربا وأطرافها
أكثر العلماء العرب الذين جاءوا بعده ، فقد أخذوا منها ونقلوا
عنها . وبهذا عد هو رائدهم فى الميدان .

وما كتبه الأدريسى عن سواحل لشبونة وفرنسا وإنجلترا
يجعل بعض مترجمى سيرته يميلون الى الاعتقاد بأنه رحل الى
تلك الأماكن ، وان كان ذلك على غير سبيل القطع واليقين .

ولقد نتج عن اجتماع المعلومات القديمة والمعلومات الحديثة
المنقولة على ألسن الرسل الموفدين نوع من اختلاط المادة عند
الأدريسى ، مما جعل المستشرق مينورسكى يقرر في موطن آخر
ان الأدريسى يخلط المعلومات المأثورة عن السلف ، بالمعلومات
التي كانت متداولة في عصره ، بوضع بعضها الى جانب بعض .
فهو يذكر « كويابه » مثلا ، مع كاو « كييف » .

ومسألة النقل عند الأدريسى لا تقدر مطلقا في مكائنه ، فان
العلم ميراث يسلسه السابقون الى الآتين بعدهم . ولا يعاب باحث
أو عالم بأنه نقل مادام هو نفسه يصرح بنقله ، ولكن العيب أن
ينقل الرجل عن غيره ويخفى نقوله . وقد كان الأدريسى واضحا
وصادقا في نقله . فإنه في مقدمة كتابه « نزهة المشتاق » ذكر
المصادر التي نقل عنها ما بين عرب وغير عرب . وهي كتاب
« العجائب » للمسعودي (١) ، وكتاب أبي نصر سعيد الجيهاني .
وكتاب ابن خرداذبة ، وكتاب أحمد بن عمر العذري ، وكتاب
أبي القاسم محمد بن حوقل من علماء الجغرافية في القرن الرابع
الهجري ، وكتاب جاناخ بن خاقان ، وكتاب موسى بن قاسم ،
وكتاب أحمد بن يعقوب المعروف باليعقوبي ، وكتاب اسحاق
ابن الحسن المنجم ، وكتاب قدامة البصري ، وكتاب بطليموس

(١) هذا ذكر الأدريسى كتاب العجائب على أنه للمسعودي ، ولا بدام
ابن هذا الكتاب الآن ، ولم يذكره المسعودي نفسه في ثبوت مؤلفاته .

الأقلودى. وكتاب أرسىوس الانطاكى. وهذه المصادر الاثنا عشر
هى المراجع التى ذكرها الأدريسى على سبيل المثال لا الحصر فى
مقدمة كتابه . ومن هنا لا محل للومه بأنه أغفل ذكر بعض المصادر
التى رجع اليها واعتمد عليها . على أن المصادر التى ألفت قبله
غير قليلة العدد ، ولا شك أنه استعان بها ، ولكنه ذكر ما ذكره
منها على سبيل المثال فقط ، ويؤكد هذا قوله فى المقدمة أنه يسئل
بعض مصادره ولا يحصرها كلها . ومن المصادر التى أفاد منها
الأدريسى ولم يذكرها : كتاب «البلدان» لابن الفقيه ، «ورحلة
سليمان التاجر» التى نقلها وعلق عليها أبو زيد السيرافى ، وكتاب
«رسم الربع المعمور» المعروف بصورة الأرض لمحمد بن موسى
الخوارزمى ، وكتاب «الأعلاق النفيسة» لابن رسته الذى كتبه
سنة ٢٩٠ هـ وهو فى اصبهان .

أما سليمان التاجر الذى نستنتج أن الأدريسى أخذ عنه، فهو
تاجر من أهل سسيراف على الخليج الفارسى ، وترجع حكاياته
ورحلاته البحرية الى سنة ٢٣٧ هـ ، وقد أضاف اليها رحلة عربى
آخر هو «ابن وهب» بعض المشاهد ، ثم دون الرحلتين بعد
ذلك فى بداية القرن العاشر الميلادى أبو زيد السيرافى من أهل
البصرة ، وأعطاهما شكلهما المعروف عندنا الآن ، مع أنه لم يكن
رحلة ، ولكنه كان مغرما بحكايات الأسفار وغرائب الرحلات .

وحكاية نقل الأدريسى عن مؤلفين قبله كانت ولا تزال معلومة عند المؤرخين القدامى والمحدثين ، لأن الرجل نفسه لم يخفها . وقد أشار مؤرخنا ابن خلدون ، في الفصل الذي عقده في المقدمة على الكلام على الجغرافيا ، الى بعض المصادر التي جمع منها الأدريسى معارفه الجغرافية ، وذكر منها ستة لا غير بدلا من الاثنى عشر مصدرا . والستة المصادر التي ذكرها ابن خلدون هي : كتاب المسعودي ، وابن خردادبة ، والحوقل — يعني ابن حوقل — والعذري ، وابن اسحاق المنجم ، وبطليموس .

ومن طرائف التصحيف في هذه المناسبة أن الأستاذ الدكتور «علي عبدالواحد وافي» ذكر في طبعته المحققة لمقدمة ابن خلدون اسم العذري على أنه « القدرى » بالقاف والدال المهملة غير المنقوطة . وهو من التصحيفات التي لم نجد بدا من الإشارة اليها هنا ، ونحن في معرض التحقيق لمصادر الأدريسى الجغرافية . وقد أشار المستشرق الاسباني في القرن التاسع عشر «بونس بويج» ، بصفة خاصة الى « العذري » وكتابه الذي أفاد منه الأدريسى ، ولا ندرى السر في افراد العذري بهذا ، فان الأدريسى ذكره فيمن ذكره من مصادر . وعلى كل فالعذري هذا هو أحمد ابن عسر المتوفى سنة ٤٧٨ هـ . وهو تلميذ لابن حزم الاندلسي ، وأستاذ — في الوقت نفسه — لابن عبد البر القرطبي . وكتابه في الجغرافية عنوانه « نظام المرجان في المسالك والممالك » ، وهو

مفقود اليوم ، ولكن الأدريسى اطلع عليه في وقته وجعله من مصادره . ويجب أن لا يضلنا النسب في اسم العذري فيوقعنا في لبس مع نسبة أخرى هي « الدلائى » . والواقع أن العذري والدلائى هما نسبتان لرجل واحد هو أحمد بن عمر العذري هذا . وقد أفردته المستشرق الأسباني بالنشيا باسم « الدلائى » ، مما يوهم أنه غير العذري ، والحق أنه هو . ومن عجائب الوهم الذى يجوز على العلماء الباحثين أن صديقنا القديم الدكتور حسين مؤنس قد جعل نسبته هكذا : (الدلائى) ، وهو خطأ صوابه : (الدلائى) بالهمزة فالياء ، نسبة الى قرية دلالة من أعمال الأندلس .

ومن الباحثين الذين أشاروا الى نقل الأدريسى عن غيره المرحوم الشيخ عبد المتعال الصعيدي في كتابه « المجددون في الاسلام » ، والأستاذ فؤاد صروف في كتابه « الرواد » ، والدكتور نقولا زيادة في كتابه « رواد الشرق العربى في العصور الوسطى » ، والدكتور زكى محمد حسن في كتابه « الرحالة المسلمون في العصور الوسطى » ، والدكتور شوقي ضيف في كتابه « الرحلات » ، والدكتور حسين فوزى في كتابه « حديث السندباد القديم » .

وحين يروى الأدريسى عن أفواه الرواة وأصحاب الحكايات ورجال الرحلات فإنه يذكر ذلك ، كما نجسده في القسم الخاص

بالهند من كتابه ، فإنه يقول : (ومما يحكى التجار المسافرون الى الهند عن ولادة القبيلة أن الأنثى منها تلد أولادها فى المياه الراكدة) (١) ، أو يقول فى موطن آخر : (ومما يحكى فى الكتب الصحيحة الأخبار ..) (٢) ووصف الكتب هنا بصحفة الأندلس هو توثيق لطبائفة القاريء على أن النهر الذى يرويه الأندلسى صحيح فى تقديره ..

ومما نقله الأندلسى عن سليمان التاجر وصفه فى القصة البحرية الخطيرة التى تكون مصحوبة غالبا بطواهر اعصارية كالرعد والبرق والبرد . وبالطبع لم يقدر للأندلسى أن يركب المحيط الهندى ليرى تلك الظاهرة البحرية فيه ، ولكن سليمان التاجر ركب من قبل ووصفها وصفاً دقيقاً المجله فى عبارات الأندلسى التى أخذها منه . كما نقل عن رحلة سليمان التاجر حكاية احراق الهنود جثث موتاهم حيث قال : (واذا مات المائ صنع له عجلة على قدر عريضة ، ارتفاعها عن الأرض وتقدر شبرين أو نحوها . وتوضع على العجلة قبة مكللة ، ويوضع المائ بحلية كفه على تلك العجلة ، ويطاف به على المدينة كلها ، بحره عبيده ، ورأسه مكشوف لمن يراه ، وشعره ينجر على تراب الأرض ، وينادى عليه مناد بلسان الهندية بكلام تفسيره بالعربية :

(١) تاريخ الهند : ج ١ ، ص ٧٨ .

(٢) تاريخ الهند : ج ١ ، ص ٨١ .

« أيها الناس ! هذا ملككم فلان بن فلان ، عاش في ملكه فارحاً قادراً كذا كذا سنة . وها هو قد مات ، وفتح يده بما معه ، لا يملك من ملكه شيئاً . ولا يدفع عن جسمه أذى . ففكروا فيما ألتم اليه صائرون ، واليه راجعون » . كل هذا باللغة الهندية . فإذا فرغ من الطواف به ، خرج الى مكان النار التي من عادتهم أن يحرقوا بها موتى ملوكهم ، فيلقونه في النار حتى يحترق .. (١) . ومما نقله الأدريسى عن المسعودي المؤرخ حكاية شجرة الوقواق ولكنه رفض تصديقها لعدم مطابقتها للعقل .

بقي أن نتناول في ختام هذا الفصل أصحاب المصادر الذين نقل عنهم الأدريسى وذكر أسمائهم في مقدمة كتابه « نزهة المشتاق » . وأولهم المسعودي المؤرخ والجغرافي صاحب كتاب « مروج الذهب » في التاريخ ، وهو يعد من المؤرخين العرب أكثر مما يعد من الجغرافيين ، وإن كانت رحلاته الدقيقة ذات قيمة كبيرة من الناحية الجغرافية ، وهو من ذرية الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ، ومن هنا جاءت نسبة المسعودي . وقد توفي سنة ٣٤٦ هـ . ويشير الأدريسى الى أنه صاحب كتاب «العجائب» ولا نعرف له كتاباً بهذا الاسم ، ولعله ضاع فيما ضاع من كتبه النفيسة . ويظهر أن الأدريسى اطلع في عصره على نسخة من هذا الكتاب فأفاد منه وثقل عنه .

(١) المصدر السابق ص ٦٢ .

أما أبو نصر سعيد الجيهاني ، فاسمه أبو عبد الله محمد ابن نصر الجيهاني وكان وزيرا للأمير من أمراء السامانيين هو الأمير نصر الثاني . ويذكر بعض المؤرخين السابقين أن الجيهاني (ألف كتابا في صفة العالم وأخباره وما فيه من العجائب والمدن والأمصار والبحار والأنهار والأمم ومساكنهم ، وغير ذلك من الأخبار العجيبة والقصص الطريفة) . وكتاب الجيهاني مفقود الى اليوم وإن كان موجودا في عصر الأدرسي . ويرجح بعض الباحثين المعاصرين أن كتاب الجيهاني تم تأليفه قبل سنة ٣٠١ هـ ولكنها استنتاجات يعوزها الدليل الملموس . ولا يعلم بالضبط تاريخ وفاة الجيهاني وإن كان جرجاس يزعم أنه توفي سنة ٩٥٦ م .

أما ابن خرداذبة ، فهو عبيد الله بن عبد الله ، وهو من أصل فارسي ، وقد تلقى كثيرا من العلوم والفنون ، حتى لقد أرسله والده الى اسحاق الموصلي ليأخذ عليه الغناء والموسيقى . ومؤلفاته مفقودة حتى الكتاب الذي ذكره الأدرسي من مصادره ولعله كتاب « المسالك والممالك » الذي طبع ما عثر عليه منه في ليدن بعناية واشراف المستشرق دي جويه . وليست وفاة ابن خرداذبة معلومة على سبيل اليقين والتحديد ، وإن كان صاحب « كشف الظنون » يذكر أنها كانت حوالى سنة ٣٠٠ هـ ، ولكن جرجي زيدان يذكر أنه توفي في أواسط القرن الثالث للهجرة .

والعذري الذي ذكره الأدريسى على أنه من مصادره هو ألسن ابن عمر العذري الذي كان تلميذا لابن عبد البر القرطبي. وكتابه « نظام المرجان في المسالك والممالك » مفقود اليوم وإن كان رجع إليه المؤرخون والجغرافيون القدامى التالون له من أمثال القزويني والأدريسى وياقوت الحموي. والعذري هو من أهل الأندلس الذين رحلوا إلى الشرق وجابوا كثيرا من الأقطار، ومن هنا تمتاز معارفه الجغرافية بالدقة والمعاينة، وتوفي العذري سنة ٤٧٨ هـ وقد سبق القول أن له نسبة أخرى هي الدلائل، فلا محل لربط الدلائل شخصا آخر غير العذري.

أما ابن حوقل فهو أبو القاسم محمد بن حوقل — وأحيانا يقال له الحوقلي — وكان معاصرا للإسطنبولي وأصغر منه سنا. وقد بدأ رحلاته إلى العالم المعروف في وقته بالتجارة، ولذا ينال أنها كانت لأغراض سياسية. وهو من أهل المشرق الوافدين إلى شمال أفريقيا والأندلس. ومن هنا كانت أوصافه لنا بل وصقلية. ويحمل كتابه اسم « المسالك والممالك »، أو كتاب صمدية الأرض. وكتابه حافل بمعلومات غزيرة طريفة عن الحياة الاجتماعية في الأندلس في عصره. ومن هنا اشتهر كتابه عند المغاربة والأندلسيين أكثر مما اشتهر عند المشارقة. وقد راجع هذا الكتاب في لندن سنة ١٨٠٠ م مع ترجمته إلى الإنجليزية، كما اهتم المستشرقون بنشر وترجمة القسم الخاص من كتابه

بأفريقية وبالرم في جزيرة صقلية . وتوفي ابن حوقل في القرن الرابع وفي تاريخ غير معلوم .

ولعل اسم جاناخ — أو جناخ — بن خاقان الكيماكي من الأسماء الغريبة المجهولة عند الباحثين ، على الرغم من رجوع الأدريسى وغيره إليه . ومعلوماتنا عنه لا تكاد تذكر ، حتى عند الباحثين الأجانب المشهورين بالبحث والتنقيب . ويحمل اسمه معنى النسبة الى قبيلة « كيماك » التركية بآسيا الوسطى . ولا ندرى اسم كتابه الذي أشار إليه الأدريسى على أنه من مصادره .

ويظهر أن حظ موسى بن قاسم القردي — وهو أحد مصادر الأدريسى — لا يزيد على حظ جاناخ من المعرفة به . وليت الأدريسى قد هدانا الى أسماء تلك المصنفات مقرونة بأسماء أصحابها ..

أما اليعقوبي الذي ذكره الأدريسى من مصادر نقله ، فهو أبو العباس أحمد بن يعقوب بن جعفر بن واضح . وهو معروف لدينا بكتابه المشهور في التاريخ ، كما أن كتابه في الجغرافية الذي نقل عنه الأدريسى والذي عنوانه (كتاب البلدان) معروف كذلك عن مخطوطته الوحيدة بسيونخ ، وعن مخطوطة أخرى كشفت من عهد غير بعيد . ويبدو أن كتابه قد انتهى من تأليفه سنة ٢٧٨ هـ

أى قبل وفاته سنة ٢٨٤ هـ بستة أعوام ، اذا أغفلنا القول القائل
بأنه توفى سنة ٢٩٢ هـ .

ولا يقل اسحاق بن المنجم ، جهلا به وعدم معرفة له ، عن
جاناخ الكيماكى ، وموسى بن قاسم القردى ، ولا نعلم من أين
جاءته هذه النسبة الغريبة ، كما لا نعلم عنه شيئا الا ما ذكره
الأدريسى من أن له كتابا فى الجغرافية رجع اليه وأخذ منه .

ونختم بقدامة البصرى كما ذكره الأدريسى ، وهو قدامة
ابن جعفر ، صاحب كتاب « الخراج » المشهور ، ولم يكن قدامة
جغرافيا حتى يفيد منه الشريف الأدريسى ، ولكن كتابه فى الخراج
يفيد فى معرفة البريد والسكك والطرق الى نواحي المشرق
والمغرب ، والمسافات بين البلاد . ويعتبره بعض الباحثين الأجانب
تنمة هامة لكتاب ابن خرداذبة ، اذ كثيرا ما يساعد فى تحقيق
نقاط عديدة فيه ، لأنه يعتمد فى أغلب الأحوال على الوثائق
الرسمية . وتوفى قدامة سنة ٣١٠ هـ .

المعاينة والمساهمة

إذا كان الشريف الأدريسى قد لجأ الى النقل فيما لم تصل اليه استطاعته وخبرته ، فانه قد آثر التجربة والخبرة الشخصية ، واعتد على المعاينة فيما هو قريب من متناوله . ولو أن الأدريسى أتيح له مثلاً أن يجوب في الهند والصين وشرقي أفريقيا ، وأن يجتاز تلك البحار البعيدة المستدة الى هناك ، لما أحجم عن وصفها وصف الخبير المعاین ، ولما احتاج الى أن ينقل في «نزهة المشتاق» بعض أوصاف غيره ممن سبقوه الى تلك البقاع والأصقاع .

وحين نصب الأدريسى نفسه في صقلية للقيام بالعمل الذي كلفه إياه الملك روجر الثاني من كتابة « نزهة المشتاق » ، وعمل الخريطة والكرة المشهورة ، فانه لم يحجم لحظة عن الاستفهام والسؤال من أهل المعاينة والخبرة والمشاهدين الذين أتيح لهم من الرحلة ما لم يتح له . فقد كان الرجل كثير التسأل والاستخبار من الرحالة والحجاج ، وكان لا يتوانى عن السؤال العلمى متى

ما وجد في ذلك خدمة للمعرفة التي كان يبحث عنها ، والحقيقة التي ينشدها .

وقد لاحظنا في معرض وصفه للأندلس والمغرب وصقلية أنه يذكر عبارة تدل على معاينته لما رآه ووقعت عليه عينه ، فيقول مثلاً : « وقد رأينا عياناً » ، أو : « وقد رأيت بعيني » ، أو غير ذلك من العبارات التي تدل على المعاينة لا على السماع أو النقل . وقد يجزىء مثال واحد ، أو نموذج واحد من ذلك عن بضعة نماذج لاحظناها في خلال قراءتنا له . ففي وصفه لحصن المعدن قرب مدينة لشبونة يقول : (وعلى ضفة النهر من جنوبيه ، قبالة مدينة لشبونة ، حصن المعدن . وسمى بذلك لأنه عند هيجان البحر يقذف هناك بالذهب والتبر ، فإذا كان زمن الشتاء قصد إلى هذا الحصن أهل تلك البلاد ، فيخدمون المعدن الذي به إلى انقضاء الشتاء . وهو من عجائب الأرض ، وقد رأينا عياناً (١) . ولم يغب عن بال بعض الذين ترجموا للشريف الأدرسي أو تحدثوا عنه في معارض الأيجاز أن يشيروا إلى ناحية المعاينة والمشاهدة عند الرجل . وقد يكون الأدرسي في ذاته ممن يحبون التجربة والعيان ويؤثرونهما على ما عداهما من وسائل إيصال المعرفة ، ولكن الموقف الذي وقفه منه الملك روجر الثاني قد

(١) وفي وصف الأدرسي للرسف الذي يلي بلاد الأندلس ويظهر في أوقات صفاء البحر يقول : (وقد رأينا عياناً) .

حمله على اتخاذ المعاينة طريقا الى اكتساب المعارف والمعارف .
فان روجر نفسه كان حريصا على كسب المعرفة بالتجارب ، ويظهر
انه اوصى الادريسي بهذا . فان مقدمته لكتاب « نزهة المستاف »
قد تحمل ملامح من هذا الاهتمام . على ان سلوك روجر الثاني
نفسه مع العارفين بالمعارف الجغرافية قد حملهم على ان يأتوا
الى الذئبره والتجربة والمعاينة بأنفسهم . فانه — على ما يروى
الادريسي — أحضر لديه العارفين بالبلاد والأقطار ، وبأعضائهم .
ثم يجد عندهم علما أكثر مما تحويه الكتب . (فلما رأهم على
مثل هذه الحال بحث الى سائر بلادهم ، فأحضر العارفين بهما .
المتجولين فيها ، فسألهم عنها بواسطة جمعا وأفرادا ، فما اتفق
فيه قولهم وسح في جسده نقلهم ، أثبت وأبقاه ، وما اخذوا نيا
الغاه وأزجاء ..)

ومن هنا نجد باحثا كالمرحوم عبد المتعال الصعيدي يقرر أن
روجر الثاني طلب من الشريف الادريسي (أن يحقق أخبار البلاد
بالمعاينة لا بما ينقل من الكتب ، فوقع الاختيار على أناس البساء
نظناء أذكفاء . ساروا الى أقاليم الشرق والغرب جنوبا وشمالا ،
وأخذوا معهم مصورين يصورون كل ما يشاهدونه . وكان
الادريسي يدون كل ما يصل اليه منهم حتى تكامل له كتابه .)

على أن توصية روجر الثاني للادريسي بأن يحقق أخبار
البلاد بالمعاينة قد جاءت صراحة في الترجمة التي كتبها المؤرخ

الأديب الصفدي لروجر الثاني في كتابه « الوافي بالوفيات » .
وندع الصفدي يقول بعبارة : (فرتب له كفاية لا تكون إلا
للملوك ، وطلب اليه أن يحقق أخبار البلاد بالمعاينة لا بما ينقل من
الكتب ، فوقع اختيارهما على اناس الباء فطناء أذكاء ، وجهزهم
روجر الى أقاليم الشرق والغرب جنوبا وشمالا ، وسفر معهم قوما
مصورين ، ليصوروا ما يشاهدونه « عيانا ») .

ومن هذا النص الصريح أكد الباحثون كل ما يقال عن عنصر
المعاينة والمشاهدة عند الأديسي . وبهذا اجتمعت لديه المعاينة
من طريقين : طريق مشاهداته هو ومعايناته الشخصية كما سلف
القول : وطريق الأخبار التي اجتمعت لديه من الرسل والمصورين
الذين كلّفهم روجر السفر والمشاهدة وجمع المادة اللازمة .

ومن هنا أيضا نجد مؤلف كتاب « الرحلات » يقرر (أن
الأديسي يتبع الطريقة العربية ، طريقة العرض الجغرافي القائم على
المشاهدة) . ولكن في هذا الكلام على - جملته - نظرا فلم تكن
طريقة كثير من المؤلفين العرب قائمة على المشاهدة ، بل استسهل
بعضهم النقل عن بعض ، وأصبح ما نراه في كتاب سابق مكررا
بنصه وعباراته تقريبا في مؤلفات لاحقة .

ويشير الدكتور « فيليب حتى » في كتابه « تاريخ العرب »
الى قيمة ما في كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » من

قيمة المعلومات الحية التي جمعها الأدريسى من الرسل والمبعوثين والمصورين الذين أوفدهم الملك روجر الثانى لتجميعها . ويقرر الدكتور « حتى » أن أهمية « نزهة المشتاق » لا تقتصر على تلخيص المواضيع الرئيسية فى الكتب السابقة بهذا المضمار ، كمؤلفات بطليموس والمسعودى فحسب ، بل تعود أهميتها أيضا الى أنها مبنية فى الأساس على تقارير مبتكرة اتصلت به عن طريق رواة كان قد أنفذهم الى بلدان متفرقة لكى يأتوه بالمعلومات. ويظهر أن أعجاب مؤرخنا العربى الدكتور حتى بالأدريسى قد جعله يشيد به فى طريقة بحث المواد التى اتصلت به ونقدها وتحرى الحقيقة فيها ، فقد أظهر فى ذلك — كما يقول الدكتور حتى — رجاحة عقل ، ورحابة صدر ، وكشف عن فهم لبعض القضايا الهامة ، كأدراكه لكروية الأرض . ولكن الدكتور حتى — فى غمرة الحماس لهذا الجغرافى العربى العظيم — قد تغاضى عن أحجام الأدريسى عن نقد مصادره ومنقولاته ومناقشتها مناقشة متحررة ، فقد كان ينقل — بلا تحقيق ولا تعليق — بعض الخرافات الأوسع انتشارا فى عصره .

ولكن موقف الأدريسى من الخرافات السائدة حتى عصره لم يكن دائما موقف التسليم والقبول بلا مخالفة أو مناقشة . ففى بعض الأحيان يرفض صاحبنا التسليم بأمور تدخل فى نطاق غير

المعتل . ولا نزال نذكر له موقفه من « شجرة الوقواق » التى تردد بين من سبقوه أنها (شجرة ببلاد الهند تحمل ثمرة تشبه رءوس الآدميين) . فقد ذكر فى « نزهة المشتاق » أن المسعودى نسب الى شجرة بجزائر الوقواق أمورا لا تدخل فى نطاق العقل الى حد أن الأدريسى رآها غير جديرة بالذكر . وعلى حين يرأس الأدريسى قصة هذه الشجرة نرى جغرافيا أندلسيا آخر هو محمد ابن أبى بكر الزهرى الذى عاش بغرناطة حوالى سنة ٥٣٣ هـ ، والذى يدعو بعض الباحثين « مؤلف « المرية » المجهول » يروى لنا قصة الشجرة المسحورة بجزائر واق الوقاق التى تثمر أشجارها كل سنة نساء بدلا من الفاكهة . والحق أن القول باعتماد الشريف الأدريسى فى تدوين المادة الجغرافية على المشاهدات الخاصة هو قول لا ينبغى أن يطلق بلا احتراس ، فأن التقارير التى جمعها الرسل المندوبون الذين أوفدهم روجر الثانى لارتياح الأقاليم ، لم تغط كل بلاد العالم المعروف فى ذلك العهد ، بل غطت الأرض المحيطة بجزيرة صقلية أو القريبة منها . أما الهند وأطراف آسيا وأفريقية مثلا فقد اعتمد فيها الأدريسى على النقل ، لأن المعاينة والملاحظة كانت بالنسبة اليه فى ذلك الميدان أمرا بعيد الاحتمال ، أو تكليفا بما لا يطاق .

على أن ذلك لا ينقص شيئاً من قدر هذا العالم الجغرافى
العربى الذى بذل كل ماوسعه من الجهد ، حتى يحقق ما يصبو
اليه هو والمملك روجر الثانى من تطبيق مبدأ المعاينة فى ميدان
الجغرافية العربية التى رفع لها شأنأ أى شأن فى مجال التقدم
العلمى عند العرب .

منهج الإدريسي في وصف البلاد

يمتاز وصف الإدريسي للبلاد التي زارها والمدن التي اجتازها ، بطابع معين يميزه التفتن الشديد لكل ما تقع عليه العين من انسان وجمـاد وحيوان ونبات . فهو دائما — وخاصة حين يصف مشاهداته الخاصة — منفتح العين والذهن على كل ما يراه ، ولا يكاد يغيب عنه مشهد أو موقع أو ظاهرة طبيعية أو صناعية مما يمر عليه . وتتجلى هذه المميزات في البلاد والمدن التي رآها وجال في أنحائها . على أنه وهو ينقل صفة البلدان التي لم يزرها فإنه يختار من المشاهد ما يكون ذا أثر وقيمة في نفس القارئ ، أو يشير فيه نوعا معينا من الفضول والاستطلاع .

ولاشك أن الإدريسي قد زار الأندلس زيارات فاحصة دارسة ، وزار المغرب وطاف بكثير من أرجائه ، كما جال في جزيرة صقلية التي أقام فيها زمانا . ومن هنا كانت أوصافه لهذه الأقطار تتميز بالدقة والملاحظة .

ويبدو اهتمام الأدريسى بسكان البلاد التي زارها ووصف
أشكالهم وأخلاقهم وعاداتهم وطبائعهم . ففي حديثه عن مدينة
البصرة المغربية في القسم الخاص بالأندلس من كتابه « نزهة
المشتاق » يتحدث عن سورها وقراها وعماراتها وغلاتها وهوائها
المعتدل ، ولكنه لا يفوته أن يتحدث عن أهلها فيصفهم بأنهم
(أعفاء ، ولهم جمال وحسن أدب) . وهو هنا يجمع بين محاسن
الخلق ومحاسن الخلق . وفي حديثه عن مدينة « أنزلان » بالمغرب
ينتهي به الحديث عن سكانها الأوائل من « غمارة » الذين (طهر
الله منهم الأرض ، وأفنى جمعهم ، وخرب ديارهم ، لكثرة ذنوبهم ،
وضعف أسلحتهم ، وكثرة جرأتهم ، وإصرارهم على الزنا المباح ،
والمواربة الدائمة ، وقتل النفس التي حرم الله بغير الحق ، وذلك
من جزاء الظالمين) .

وينتقل بنا الأدريسى الى مدينة شلب الأندلسية التي تبعد عن
« شنت مارية » ثمانية وعشرين ميلا ، فيخص أهلها ببعض
الصفات المميزة لهم ، فهم (عرب من اليمن وغيرها ، وهم يتكلمون
بالكلام العربي الصريح ، ويقولون الشعر ، وهم فصحاء نبلاء ،
خاصتهم وعامتهم . وأهل بوادي هذا البلد في غاية من الكرم ،
لا يجاريهم فيه أحد ..) . وهكذا يبرز لنا الأدريسى في أهل مدينة
الأندلس ناحية فصاحتهم وانطلاق ألسنتهم ، ونظمهم الشعر ،
وتكلمهم باللسان العربي الصريح . وحين يحدثنا عن « رابطة

كنسطالى « القريبة من قلعة شيفر يصف القوم الذين يمسكونها بأنهم قوم أخيار . وهو هنا متفطن الى مظاهر الخير والشر بين السكان . أما النظرة من الأدريسى الى النساء فلا تقل دقة عن النظرة الى الرجال ، فحين مروره على مدينة « جنجالة » الأندلسية التى تبعد عن « مرسية » خمسين ميلا يلفتة جمال نسائها وجصافتها فلا يتوانى عن تسجيل ذلك (١) .

وقد يكون لكثير من المدن التى يصفها الأدريسى تاريخ سياسى أو عسكرى فلا يفوت هذا الرجل أن يشير اليه فى خلال وصفه . فحين حديثه عن « المدينة الخضراء » بالأندلس سجل بعض لقطات من تاريخها السياسى ، فقال : (والجزيرة الخضراء أول مدينة افتتحت من الأندلس فى صدر الاسلام . وذلك فى سنة تسعين من الهجرة ، وافتتحها موسى بن نصير من قبل المروانيين ، ومعه طارق بن عبد الله بن ونمو الزناتى ، ومعه قبائل البربر . فكانت هذه المدينة أول مدينة افتتحت فى ذلك الوقت) .

ولا تخطئ عين الأدريسى وصف المعالم والمشاهد وأماكن العبادة سواء أكانت مساجد . أم كنائس . فهو يصف المسجد الجامع بقرطبة . فيطيل فيه بعض الاطالة على قدر حظه من الفخامة

(١) من أوصاف الأدريسى الدنيقة للناس صفه لاهل قرطبة ، وقد التى عليهم ثناء مستطابا وذكر كثيرا من محامدهم ومناقبهم . انظر « الحلل السندسية » .

والضخامة ويقول فيه : (وفيها المسجد الجامع الذي ليس بمسجد المسلمين مثله بنية وتنميكا ، وطولا وعرضا . وطول هذا الجامع مائة باع مرسل ، وعرضه ثمانون باعا ، ونصفه مسقف ، ونصفه صحن للهواء ، وعدد قسي (١) مسقفه ١٩ قوسا . وفيه من السواري ، أعنى سواري مسقفه بين أعمدته وسواري قباته صفارا وكبارا ، مع سواري القبة الكبرى وما فيها ، ألف سارية . وفيه ١١٣ ثريا للوقيد ، أكبرها واحدة منها تحمل ألف مصباح ، وأقلها تحمل ١٢ مصباحا .. ولهذا المسجد الجامع قبلة يعجز الواصفين وصفها وفيها اتقان يبهر العقول تنميكا ، وكل ذلك من القسيساء المذهب والملون) ويمضى الأدرسي هكذا في وصف المحراب والمنبر والساباط وصومعة الأذان ، والمصحف الكبير الذي يرفعه رجالان لثقله ، وفيه أربع أوراق من مصحف عثمان ابن عفان الذي خطه يمينه وفيه نقطة من دمه .

ولا تقل دقته وحيوية وصفه للمسجد عن دقته وحيوية وصفه « لكنيسة الغرب » بالأندلس ، فهي من عهد الروم الى أيام الأدرسي لم تتغير عن حالها ، ولها أموال يتصدق بها عليها . وهي عامرة بالقسيسين والرهبان . وعلى رأسها عشرة أغربة لا يعرف

(١) القسي : جمع قوس ، وهو المعروف في الابنية ، ويجمع على أقراس أيضا .

أحد فقدوها وعهد زوالها . ويتحدث قسيسو الكنيسة عن هذه
الأغربة بغرائب لا يكاد يصدقها العقل .

وقد وصف الأدريسى القناطر ومنها القنطرة العجيبة غربى
مدينة لاردة بالأندلس ، كما وصف المرأة الغريبة التى أقامتها
الملكة لاردة بنت هرسوس فى برج عال من القصر يدور على حرفه
فتدور معه المرأة . كما وصف الحمامات التى كانت فى بعض
المدن ، كحمامات مدينة لشبونة الحارة فى الشتاء والصيف .

وتأخذ الأسواق العامة والخاصة مكان الاهتمام عند
الأدريسى ، ففى حديثه عن مدينة سبتة بالمغرب يشير الى شجر
المرجان فيها الذى لا يعدله صنف من صنوف المرجان المستخرج
بجميع أقطار البحار ، ثم يفضى به الحديث الى سوق المرجان
فيقول : (وبمدينة سبتة سوق لتفصيله وحكه ، وصنعه خرزا ،
وثقبه وتنظيمه ، ومنها يتجهز به الى سائر البلاد . وأكثر ما يحمل
الى غانة وجميع بلاد السودان ، لأنه فى تلك البلاد يستعمل
كثيرا) . وحين يمر معرجا من طنجة الى بلدة « أزيلا » ، فإنه
يتحدث عن الأسواق القريبة فى أرضها . وكذلك تلفت نظره كثرة
الأسواق فى مدينة « أشبيلية » بالأندلس فيقول عنها : (ومدينة
أشبيلية مدينة كبيرة عامرة ، ذات أسوار حصينة ، وأسواق

كثيرة ، وبيع وشراء) . ويخرج من مدينة أشبيلية الى مدينة « لبله » فيتحدث عن الأسواق والتجارة فيها .

وبمناسبة التجارة نلاحظ اهتمام الأدريسى في « نزهة المشتاق » بأنواع التجارات ، والسلع والغلات التي يتجر بها في كل بلد . ففي أشبيلية تتركز جل تجارة أهلها في الزيت ، ويتجهز به منها الى أقصى المشارق والمغرب برا وبحرا ، وكذلك الشأن في مدينة « ييورة » الأندلسية التي ترى التجارات فيها داخلة وخارجة .

وللغلات والمعادن نصيب كبير من اهتمام الأدريسى حين يصف البلاد والمدن . فمدينة « البصرة » بالمغرب بها غلات كثيرة ، وأكثر غلاتها القطن والقمح ، وسائر الحبوب . ومدينة « شنت مارية » الأندلسية كثيرة الأغصان والتين ، ومدينة « قورية » بالأندلس فيها (أصناف من الفواكه كثيرة ، وأكثرها الكروم وشجر التين) . ومدينة « طرطوشة » ينمو بجبالها خشب الصنوبر الذي لا يوجد له نظير في الطول والغلظ ، ومنه تتخذ سوارى السفن وقراياها (١) . (وهذا الخشب الصنوبر الذي بجبال هذه المدينة أحمر صافي البشرة ، دسم لا يتغير سريعا ولا يفعل فيه السوس ما يفعله في غيره ، وهو خشب معروف منسوب) .

(١) القرايا : جمع قرية على وزن : هدية ، وهي مود الشراع الذي يجعل في عرشه من أعلاه .

أما المعادن فقد اهتم الأدريسى بذكرها في أماكن وجودها ،
ففى قرية « بطرنة » الأندلسية معدن التوتية التى فاقت جميع
معادن التوتية طيبا . وبقرب حصن فريش بالاندلس (مقطع للرخام
الرفيع الجليل الخطير المنسوب اليه . والرخام الفريشى أجمل
الرخام بياضا ، وأحسنه ديباجا ، وأشده صلابة) . وفى أول
القسم الخاص بأقليم الهند من كتاب « نزهة المشتاق » يتحدث
الأدريسى عن الحديد فى مدينتين هناك بأرض سقالة (وليس
بأيدي أهل هاتين المدينتين شيء يتصرفون به ويتعيشون منه الا
الحديد ، وذلك أن بلاد سقالة يوجد فى جبالها معادن الحديد
الكثيرة . ولا يوجد شيء من الحديد أمضى من الحديد الهندى ،
وهذا شيء مشهور لا تنكر فضيلته (١) .

وكما يهتم الأدريسى بالتجارة والغلات فإنه يهتم فى كل بلد
بالحديث عن أهم الصناعات فيه . ففى مدينة سبتة بالمغرب تقوم
صناعة المراكب وانشاء السفن . وفى مدينة « حصن قليبره »
الأندلسية تقوم صناعة السفن (لأنها دار انشاء السفن ، ومنها
تخرج السفن الى أقصى المشرق ، ومنها يخرج الأسطول للغزو) .
وفى مدينة « شاطبة » بالاندلس (يعمل من الكاغد ما لا يوجد
له نظير بمعمور الأرض ، ويعم المشارق والمغرب) ، وفى مدينة
« حصن بكيران » بالاندلس (تصنع ثياب بيض تباع بالأمان

(٢) وصف الهند للأدريسى : طبع الهند ص ١ ، ٢ .

الغالية ، ويعمر الثوب منها سنين كثيرة ، وهى من أبدع الثياب
متانة ورقة ، حتى لا يفرق بينها وبين الكاغد فى الرقة والبياض .
وفى مدينة « جنجالة » الأندلسية يصنع من وطاء الصوف
ما لا يمكن صنعه فى غيرها لمناسبة الماء والهواء هناك لصناعته .
وفى مدينة « المرية » بالأندلس تعمل الثياب ، والحلل ، والديباج ،
والسقلاطون (١) ، والأصبهاني ، والجرجاني ، والستور المكلمة
والثياب المعنية ، والخمر « جمع خمار » ، والعتابي ، والمعاجر ،
وصنوف أنواع الحرير .

ويبدى الادريسي اهتماما خاصا بمصايد الأسماك، واللؤلؤ،
والمرجان . وفى فصل من كتابنا هذا حديث عن وصف الادريسي
لصيد اللؤلؤ من مغاصات جزيرة أوال فى البحرين . وقد وصف
صيد السمك وخاصة التنين الكبير الذى يخرج من البحر قرب
مدينة سبتة (وصيدهم له يكون زرقا بالرماح ، وهذه الرماح لها
فى أسنتها أجنحة بارزة تنشب فى الحوت ، ولا تخرج . وفى
أطراف عصيها شرائط القنب الطوال . ولهم فى ذلك دربة وحكمة
سبقوا فيها جميع الصيادين ..) . أما صيد المرجان من شجره
أو شعبه المرجانية فى مياه سبتة المغربية فقد تعرض له الادريسي،
وان كان لم يحدثنا عن طريقة صيده كما حدثنا عن طريقة صيد
اللؤلؤ من البحرين حديثا شائقا ممتعا ..

(١) نوع من النسيج اللانور .

وحيث يتحدث الأدريسى عن الأنهار التي يصفها فإنه يصف مجاريها واتجاهاتها ومنابعها وماءها وضافها وما عليها من زراعات وأشجار . ففي حديثه عن مدينة وادي الحجارة بالأندلس يتحدث عن النهر الصغير الذي يجري بجهة غربيها ، وهذا النهر يجري الى جهة الجنوب ، فيقع في نهر تاجه الأكبر فيمده بالماء . ونهر تاجه المذكور يخرج من ناحية الجبال المتصلة بالقلعة والفتة . فينزل مارا مع الغرب الى مدينة « طليطلة » ثم الى « طلييرة » ، ثم الى « المخاضة » ، ثم الى « القنطرة » ثم الى « قنيطرة محمود » ، ثم الى مدينة « شنترين » ، ثم الى « لشبونة (١) » فيصب هناك في البحر .. وفي حديثه عن نهر « ابرة » بالأندلس يقول انه نهر كبير يأتي بعضه من بلاد الروم ، وبعضه من جهة جبال قلعة أيوب وبعضه من نواحي « قلهرة » ، فتجتمع مواد هذه الأنهار كلها فوق مدينة « تطيلة » (٢) ، ثم تنصب الى مدينة « سرقسطة » ، الى أن تنتهي الى « حصن حبرة » ، الى موقع الزيتون ، ثم الى « طرلوشة » فيجتاز بغربيها الى البحر .

ويلاحظ الأدريسى عملية نقل الأخشاب في مياه الأنهار بكتلها دون شحنها في مراكب ، فيصورها في دقة ، كما فعل في حديثه عن مدينة « قلصة » الأندلسية حيث يقول : (وقلصة حصن منيع

(١) لشبونة : عاصمة البرتغال اليوم ، وهي من أكبر موانئ أوروبا .

(٢) مدينة بشمال إسبانيا اليوم على نهر الأبرو ، وبها معامل للسكر .

يتصل به اجبل كثيرة بها شجر الصنوبر الكثير ، ويقطع بها
الخشب ويلقى في الماء ، ويحمل الى دانية والى بلنسية في البحر ،
وذلك أنها تسير في النهر من قلصة الى جزيرة شقر ، ومن جزيرة
شقر الى حصن قالييرة ، وتفرغ هناك على البحر ، فتملا منها
المراكب .. ولا تزال عادة ارسال الخشب في النهر الى جزيرة
شقر الى قلييرة — قالييرة — الى يومنا هذا) .

ولما كانت أسوار المدن جزءا هاما لأمن البلاد وسلامتها ،
فقد اهتم الأدريسى بوصف الأسوار على كل بلد يصفه أو يمر به ،
كحديثه عن سور مدينة « ييورة » بالأندلس ، وحديثه عن أسوار
مدينة « ترجالة » الأندلسية التي تتصف بالمناعة ، وحديثه عن
سور مدينة « سرقسطة » الأندلسية ، وهو سور متين حصين
مبنى من الحجارة . فاذا لم يكن للبلد سور ولا حصن أشار الى
ذلك ، كما فعل عند حديثه على مدينة « شنترين » الأندلسية التي
لا سور لها .

ويؤكد الأدريسى أوصافه لما رآه بقوله : « رأيت ذلك عيانا » ،
أو غيره من العبارات الدالة على المعاينة كما سبق القول .

ويلجأ صاحبنا الى الأطوال المعروفة في قياس المسافات
والأبعاد ، كالأميال والمراحل ، وقد يجمع بين الميل والمرحلة في
مجال واحد كقوله في الحديث عن بطليوس : (ومن مدينته

بطليوس الى مدينة قرطبة على الجادة ست مراحل ، ومن بطليوس الى مدينة ماردة على نهر يانة شرقا ثلاثون ميلا) . وقد يقيس المسافة أحيانا بالأيام — ويعنى بذلك مسير الأيام — كما فعل في قياسه لجبل الثلج في « شنيل » الأندلسية ، فقد ذكر (ان طوله يومان وعلوه في غاية الارتفاع ..) .

وحين يريد أن يؤكد وصف البلد أو المدينة في عهده يشير الى ذلك بقوله : (ومدينة قرطبة في حين تأليفنا هذا الكتاب طحتتها رحي الفتنة) أو بمثل قوله : (وهي الآن — يعنى في زمانه — خراب في حال الذهاب) ، أو بمثل قوله عن مدينة أزيلا المغربية : (وهي مدينة صغيرة جدا ، وما بقى منها الآن الا نزر يسير) أو بمثل قوله عن مدينة طليطلة : (ومدينة طليطلة — في وقتنا هذا — يسكنها سلطان الروم القشتاليين) .

وقد كان الأدريسى متفطنا الى تجمعات اليهود في أرض الأندلس ، فقد كانوا يعيشون متجمعين في مدن خاصة بهم أو أحياء خاصة بهم من المدن . وفي حديثه عن مدينة « طركوثة » (١) الأندلسية يقول : (ومدينة طركوثة على البحر وهي مدينة اليهود) . وفي حديثه عن مدينة « أليسانة » (٢) بالأندلس يذكر أنها مدينة

(١) من مدن إسبانيا اليوم واسمها TARRACONE

(٢) أليسانة : بلد بإسبانيا اسمه اليوم LUCENA ويبلغ عدد سكانه ٢١ ألف نسمة كما جاء في « الحقل السندسية » للأمير شكيب أرسلان .

اليهود ، ولها ربح — أى ناحية — يسكنه المسلمون وبعض
اليهود .. واليهود يسكنون بجوف المدينة ، ولا يداخلهم فيها
مسلم ألينة .. ولليهود بها تحذر وتحصن ..

وهكذا يكشف لنا هذا الرحالة الجغرافى اللماح عن أخلاق
اليهود وخبثهم ومكرهم وتكتلهم وعزلتهم منذ قرون ..

بين الراقع والأساطير

يلفت نظرنا في الفصل الذي كتبه المستشرق « بالنشيا » عن الشريف الأدريسى في كتابه « تاريخ الفكر الأندلسي » أنه حين يتحدث عن مادة الأدريسى الوافرة عن البلاد الأوربية التي تقطنها شعوب نصرانية يقول أنه يطوى كتابه « نزهة المشتاق » على بعض أطراف من الخرافات التي كانت أوسع ما تكون انتشارا في عصره .

والحق أن هذا الاتهام على ما فيه من اطلاق يحتاج الى كثير من النظر والمراجعة والتعديل .

واذا كان الأدريسى قد أطل مثلا في الحديث عن يأجوج ومأجوج ، فانه معذور في هذا فقد كان ناقلًا عن بعض من سبقوا ، وقد ذكر هو في مقدمة « نزهة المشتاق » أسماء الذين نقل عنهم . وهذه المصادر العربية في التاريخ والجغرافية التي نقل عنها

الأدريسي كانت مشحونة بالحديث عن يأجوج ومأجوج ، وهو حديث فيه كثير من الخرافة والأساطير . وقد دارت حول أمتي يأجوج ومأجوج حكايات وقصص هي أميل الى القصص الأسطوري منها الى الحقائق التاريخية . وتكفى نظرة الى ما كتبه المؤرخ ابن كثير في ذلك فانها تدل على مبلغ ما تعرض له هذا الجيل من الأقاويل . وقد التمس كراتشكوفسكى العذر للأدريسي حين لاحظ اهتمامه بالكلام عن يأجوج ومأجوج ، وذكر أنهما شغلا مكانة كبيرة في كل من الجغرافية العربية والجغرافية الأوروبية في العصور الوسطى . والحق أن اشتراك الجغرافية الأوروبية في الاشتغال بأساطير يأجوج ومأجوج هو دليل على المشاركة العالمية في الانشغال ببعض الأساطير . فلم يكن العرب وحدهم ، ولم يكن الأدريسي وحده بدعا في هذا .

ويتهم الأدريسي مرة أخرى بأنه حين وصف مدينة قريبة منه مثل مدينة رومة عاصمة إيطاليا فانه « يفعل ذلك في أسلوب يذكر بحكايات ألف ليلة وليلة » . ويقصد المتهم هنا أن الأدريسي يغالى في الوصف الذى يبعد به عن الواقع الى حكايات الخيال والأساطير . والحق أن وصف الأدريسي لرومة كما يحمل بعض الخيال فانه يحمل كثيرا من الواقع ، ويكفى أن نسجل هنا بعض عبارات ذلك الوصف حيث يقول : (رومة هي على جانبى نهر الصفر — أى التيبر — وهي مدينة مشهورة ، ومقر خليفة

النصارى المسمى بالبابا ، وهى على جنوبى خور البنادقة . وبلاد رومة غربى قلفرية . ودور سورها أربعة وعشرون ميلا ، وهو مبنى بالآجر ، ولها واد يشق وسط المدينة ، وعليه قناطر يجاز عليها من الجهة الشرقية الى الغربية . وامتداد كنيسة رومة ستمائة ذراع فى مثله ، وهى مستقفة بالرصاص ، ومفروشة بالرخام ، وفيها أعمدة كثيرة عظيمة . وعلى يمين الداخل من آخر أبوابها حوض رخام عظيم للمعمودية ، وفيه ماء حار أبدا . وفى صدر الكنيسة كرسى من ذهب يجلس عليه البابا ، وتحت باب مصفح بالفضة ، يدخل منه الى أربعة أبواب ، واحد بعد آخر ، يفضى الى سرداب فيه مدفون بطرس حواري عيسى . ولهذه المدينة كنيسة أخرى مدفون فيها بولس ، وبجذاء قبر بطرس حوض رخام منقوش عظيم ، فيه فرش الكنيسة وستورها التى تزين بها فى أعيادهم) .

واذا كانت قصة الأخوة المغربين التى ذكرها الأديسى فى خلال حديثه عن مدينة لشبونة تحمل بعض العناصر التى يراها بعض الباحثين أسطورية ، فانه لا محل للمقارنة بينها وبين قصة القديس براندان لمحاولة الكشف عن مصدر واحد مشترك بين القصتين . وقد عاش هذا الراهب البحار الرحالة فى القرن الخامس المسيحى . ويقول الأب أنستاس مارى الكرملى ان أول من اتبه للرحلة غربا راهب اسمه براندان المولود سنة ٤٨٣ م وهو من أصل شريف يرتقى الى ملك ايرلنده .. ففى عام ٥٤٥ م — أى

قبل ظهور الإسلام ومبعت نبيه عليه السلام — تهيأ لتحقيق ما يختلج في صدره من الأمانى مع أربعة عثر راهبا من مقتضى الأحوال ، فابتنوا مركبا كبيرا ليستكشفوا ما هناك ... وفي سنة ٥٥٢ م نزل براندان ورفاقه على ساحل أمريكا ...

وينكر الأستاذ عباس محمود العقاد أن يكون كولمبوس مدينا بالفضل في معرفة العالم الجديد لمراجع من القرن الخامس للمسيح

وحين تعرض الأدريسى في القسم الخاص من « نزهة المشتاق » لوصف بلاد الهند ، فانه ذكر جزيرة « هر كند » وذكر أن (بها الجبل الذى أهبط عليه آدم ، وهو جبل سامى الذروة . على القمة ، ذاهب في الجو ، يراه البحريون في مراكبهم على مسيرة أيام (١) ...) وللمفسرين والمؤرخين وعلماء المسلمين في اسم المكان الذى أهبط عليه آدم كلام كثير . ولا بأس ان نحيل القارئ هنا إلى كتاب « الكامل » لابن الأثير ، فليس هنا مجال تفصيل . ولكن الأدريسى أوجز الخبر في سطر واحد ، هو من منقولاته الكثيرة . ولم يكن الأدريسى في مجال التحقيق لمكان هبوط آدم . لأنه لا مجال للتحقيق أو القطع فيه برأى . فاكفى بهذه الإشارة العابرة .

على أن الأدريسى حين يتلقى أو ينقل أو يسمع خبرا لا يقبله

(١) وصف الهند - ص ٧

العقل فانه — غالبا — لا يتردد في رفضه أو اظهار الشك فيه .
ففى حديثه عن أغربة (كنيسة الغراب) بالآندلس يذكر أن
(قسيسى تلك الكنيسة يخبرون عن تلك الأغربة بغرائب يتهم
المخبر بها ..) وليس أبلغ ولا أوجز من هذا التعبير فى التشكيك
ورفض الخبر ...

وقد يقف الأدريسى أمام بعض الأمور التى شاهدها أو سمعها
بالآندلس مثلا موقف القبول اذا لم يبد للعقل استحالتها . ففى
حديثه عن مدينة سرقسطة الأندلسية ذكر أن (من خواصها أنها
لا تدخلها حية البتة ، وان جلبت اليها وأدخلت المدينة ماتت وحيا
— أى سريعا — بلا تأخير ...) ولم يعلق الأدريسى على هذا
برفض أو قبول . على أنه ليس فى الطبيعة ما يناقضه أو يناهضه .

وقد وقف الادريسي فى مدينة « المنكب » (١) بالآندلس أمام
بناء مربع قائم كالصنم ، أسفله واسع ، وأعلاه ضيق (وبه
حفيران من جانبيه متصلان من أسفله الى أعلاه ، وبأزائه من
الناحية الواحدة فى الأرض حوض كبير يأتى اليه الماء من نهر ميل ،
على ظهر قناطر كثيرة معقودة من الحجر الصلد ، ، فيصب ماؤه
فى ذلك الحوض . ويذكر أهل المعرفة من أهل المنكب أن ذلك الماء
كان يصعد الى أعلى المنار ، وينزل من الناحية الأخرى ، فيجرى

(١) مدينة المنكب بالآندلس يسميها الاسبانيون اليوم almuncar وهو تحريف

واضح .

هناك الى ربحى صغيرة كانت ، وبمى موضعه الان على جبل مطل
على البحر ، ولا يعلم احد ما المراد من ذلك ..) فالادريسي هنا
ينقل ما يقوله أهل المنكب عن هذا البناء العجيب ولكنه لا يدرى
العلة فى بنائه وفى صعود الماء اليه وانصبابه من أعلاه ، ويتحاشى
الرجل أن يشير الى خرافة أو أسطورة مما كان يتناقله المحدثون
عن هذا البناء العجيب .

وحين يتحدث الأدريسى عن حيوان الكركدن فى بلاد الهند
— أو فى جزيرة سرنديب بصفة خاصة — فانه يتعرض لوصف
قرون تلك الدابة العظيمة ، فيقول رواية عن غيره : (وفيما يذكر
أنه توجد فى بعض هذه القرون فى جوفها — اذا هى شقت —
صورة انسان أو صورة طائر أو غيره من الصور كاملة الشكل
بيضا . وهذا القرن الذى توجد فيه هذه الصورة يصنع منه مناطق
تساوى من القيمة كثيرا ، وتكون الصورة التى توجد فيه من أوله
الى آخره ..) (١) . وقد يتخيل لأول وهلة أن وجود صورة
انسان أو طائر أو غيره فى شق من قرن الكركدن هو ترديد من
الأدريسى لأسطورة لا تمت بصلة الى الواقع ... والواقع أن
« التجازيع » التى توجد داخل الشق قد تحمل صورا غريبة قريبة
الشبه من الوجوه البشرية والحيوانية ، كالذى نجده من بعض
الصخور حين نشقها ، أو كالذى تفعله الطبيعة — عن غير قصد —

(١) وصف الهند . ص ١٣

من تشكيل حجارة الاستالاكتيت والاستالجمائيت في المغارات المشهورة بأشكال انسانية ونباتية وحيوانية عجيبة ، كالذى نجده في مغارة قاديشا بלבنا ، وفي مغارة مدينة باث بانجلترا .

على أن الأدريسى حين يرى الأسطورة أو الخرافة صارخة ومنافية للعقل والطبع فانه لا يتردد في تكذيبها وإظهار استحالتها، كالذى فعله حين نقل ما قاله الجاحظ في « الحيوان » عن دابة الكركدن من أنها (تقيم في جوف أمها سبع سنين ، وأنها تخرج رأسها وعنقها من فرج أمها فترعى الحشيش ، ثم تعيد رأسها إلى جوف أمها ، فاذا ابتداء تكون قوتها امتنعت من الخروج للرعى على حسب عاداتها ، فتتنقر في جوف أمها ، حتى تبقر جوفها وتخرج منه وتموت الأم ...) فقد علق الأدريسى على هذا الكلام بقوله : (وهذا محال من قوله غير مسموع ، لأن الأمر لو كان كما وصفه لفنى هذا النوع ، حتى لا يوجد الا ذكره ..) (١) .

ويذكرنا هذا بالتعليق الذى علق به المسعودى المؤرخ على كلام الجاحظ في موضوع الكركدن ذاته ، ولا بأس هنا من إيراد . قال المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ . والسابق على الأدريسى بأكثر من قرنين من الزمان : (فبعثنى هذا الوصف — يعنى خروج رؤوس أولاد الكركدن من بطون أمهاتها للرعى وعودتها إلى داخل البطن — على مسألة — أى سؤال — من

(١) المصدر السابق ص ١٢ ، ١٣

سلك الديار من أهل سيراف ، وعمان ، ومن رأيت بأرض الهند
من التجار . وكل يتعجب من قوله — يعنى من قول الجاحظ الذى
سبق ذكره — اذا أخبرته بما عندى من هذا وسألته عنه .
ويخبروننى أن حملة وفصاله كالبقر والجواميس . ولست أدرى
كيف وقعت هذه الحكاية للجاحظ ؟ أم كتاب نقلها ، أم مخبر
أخبره بها ؟؟)

وحادثة أخرى تدل على مبلغ تشكك الأدريسى فى قبول
الأخبار التى تحمل طابع الخرافات والأساطير ، فانه شك فى الذى
رواه المسعودى عن شجرة بجزائر الوقواق تحمل كل عام رؤوس
نساء بدلا من حمل الثمار العادية والفاكهة . ورأى فيها أنها غير
جديرة بالذكر ، على حين أن « الزهرى » الأندلسى قد روى هذه
الحكاية بتفصيل وبسرد يوهم أنها تدخل فى باب الواقع من
الحياة ...

وصف المدن

جرت عادة الرحالين العرب أن يصفوا المدن الصغيرة والكبيرة التي يمرون عليها . وهذه الأوصاف تختلف تبعا لعين الواصف ودقة ملاحظته ، وتبعا لاهتماماته بأنواع معينة من الوصف ، كما أنها تختلف تبعا للزاوية التي ينظر اليها منها .

ولقد وصف الشريف الإدريسي مدن البلاد التي زارها ، وخاصة الأندلس والمغرب ، ووصف مدن صقلية كذلك بحكم إقامته فيها شطرا كبيرا من عمره . أما بقية البلاد التي لم يزورها فقد رجع في صفتها الى الذين كتبوا قبله من الرحالة والجغرافيين . وفي مقدمته لكتاب « نزهة المشتاق » يعد لنا طائفة من الكتب التي رجع اليها في وصف الأقاليم وما فيها من مدن ، كما سبقت الإشارة الى ذلك في فصل سابق .

ولم يكد الإدريسي يدع مدينة من مدن الأندلس الا وصفها

وصف الخير ، فاذا مر بمدينة سجل أهم ما تتميز به من معالم طبيعية ، ووصف النهر الذى تقع عليه ، أو البحر القريب منها ، وذكر أسوارها وأبوابها وحصونها ، ومعادنها وغلاتها الزراعية ، ومعابدها وأسواقها ، وتجارها . ثم يأخذ فى نعت ما تتميز به غلاتها ، ولا يفوته أن يصف أهلها ويتحدث عن عاداتهم . ونراء يطيل فى الوصف أو يوجز تبعا لأهمية المدينة وتعدد جوانب الوصف فيها .

وقد يشير الى ناحية من تاريخها وما مر بها من أحداث كبار . ففى وصفه لمدينة طليطلة بالأندلس يقول انها كانت فى أيام الروم مدينة الملك ومدارا لولاتها . وفى وصفه لمدينة « الجزيرة الخضراء » الأندلسية يقول انها (مدينة متحضرة لها سور حجارة مفرغ بالجيار ، ولها ثلاثة أبواب ، ودار صناعة داخل المدينة ، ويشقها نهر يسمى نهر العسل ، وهو حلو عذب ، ومنه شرب أهل المدينة ، ولهم على هذا النهر بساتين وجنات بكلتى ضفتيه معا . وبالجزيرة الخضراء انشاء واقلاع وحط ، وبينها وبين مدينة سبتة مجاز البحر ، وعرضه هناك ثمانية عشر ميلا) . فانظر كيف تحدث عن المدينة حديثا موجزا جامعا لأشهر معالمها وخصائصها ومميزات نهرها . وانظر كيف تحدث عن مجاز البحر بينها وبين مدينة سبتة التى تقع مقابلها على الشاطئ الأفريقى بالمغرب ، وانظر كيف ذكر عرض هذا المجاز أو الممر البحرى بالأميال .

وحين يتحدث الأدريسى عن مدينة « أشييلية » بالأندلس يذكر أنها (مدينة كبيرة عامرة ذات أسوار حصينة . وأسواق كثيرة ، وبيع وشراء . وأهلها مياسير ، وجل تجارتها بالزيت يتجر به من أقصى المشارق والمغارب ، برا وبحرا ، وهذا الزيت عندهم يجثم من « الشرف » وهذا الشرف هو مسافة أربعين ميلا ، وهذه الأربعون ميلا كلها تمشى في ظل شجر الزيتون والتين) .

وفي وصف مدينة « شنت مارية » بالأندلس يقول الأدريسى :
(ومدينة شنت مارية على معظم البحر الأعظم ، وسورها يصعد ماء البحر فيه اذا كان المد . وهي مدينة متوسطة القدر ، حسنة الترتيب ، لها مسجد جامع ومنبر وجماعة . وبها المراكب واردة وصادرة ، وهي كثيرة الأعناب والتين) .

فاذا انتقلنا مع الأدريسى الى مدينة « ماردة » رأيناها يصفها قائلا : (ومدينة ماردة كانت دار مملكة لماردة بنت هرسوس الملك . وبها من البناء آثار ظاهرة ، تنطق عن ملك وقدر ، وتعرب عن نخوة وعزة ، وتفصح عن غبطة . فمن هذه البناءات أن في غرب المدينة قنطرة كبيرة ذات قسى ، عالية الذروة ، كثيرة العدد ، عريضة المجاز . وقد بنى على ظهر القسى أقباء تتصل من داخل

(1) اسمها الآن بالاسبانية : MERIDA وهي في جنوبى شرقى اسبانيا على الخط الحديدى بين مدريد وبطليوس

المدينة الى آخر القنطرة ، ولا يرى الماشى بها . وفي داخل هذا الداموس قناة ماء تصل المدينة . ومشى الناس والدواب على تلك الدواميس . وهي مثقنة البناء ، وثيقة التاليف ، حسنة الصنعة . والمدينة عليها سور حجارة منجورة من أحسن صنعة وأوثق بناء . ولها في قصبتها قصور خربة .. وفي الجنوب من سور هذه المدينة قصر آخر صغير ، وفي برج منه كان مكان امرأة ، كانت الملكة « ماردة » تنظر الى وجهها فيها ، ومحيط دوره عشرون شبرا ، وكان يدور على حرفه ، وكان دورانه قائما . ومكانه الآن باق . ويقال انسا صنعته « ماردة » لتحاكى به امرأة ذى القرنين التى صنعها في منار الاسكندرية ..) .

وهكذا نجد أوصافا دقيقة ممتعة لكل مدن الأندلس التى زارها الإدريسي ، ووصفها عن معاينة ، مثل مدينة قلصرية ، وشنترين ، وطليطلة ، وسرقطة ، وبلنسية ، ومرسية . والمرية وغيرها .

وكان لبلاد المغرب نصيب من الوصف عند الشريف الإدريسي في كتابه « نزهة المشتاق » . وكان لمدينة « سبتة » — وهى مسقط رأسه — نصيب لا بأس به من الوصف ، ولا بأس من ايراد بعض صفته لها حين يقول : (فأما مدينة سبتة فهى تقابل الجزيرة الخضراء ، وهى سبعة أجيال صغار متصلة بعضها ببعض معسورة . طولها من المغرب الى المشرق نحو ميل . ويتصل بها من جهة

الغرب ، وعلى ميلين منها ، جبل موسى . وهذا الجبل منسوب لموسى بن نصير . وهو الذى كان على يديه افتتاح الأندلس فى صدر الاسلام . وتجاوره جنات وبساتين وأشجار وفواكه كثيرة ، وقصب سكر ، وأترج يتجهز به الى ما جاور سبتة من البلاد ، لكثرة الفواكه بها . ويسمى هذا المكان الذى جمع هذا كله : بليونس . وبهذا الموضع مياه جارية ، وعيون مطردة ، وخصب زائد . ويلى المدينة من جهة المشرق جبل عال يسمى : جبل المنية ، وأعلاه بسيط ، وعلى أعلاه سور بناه محمد بن أبى عامر عندما جاز اليها من الأندلس ، وأراد أن ينقل المدينة الى أعلى هذا الجبل ، فمات عند فراغه من بنيان أسوارها . وعجز أهل سبتة عن الانتقال الى هذه المدينة المسماة بالمنية ، فمكثوا فى مدينتهم ، وبقيت « المنية » خالية ، وأسوارها قائمة ، وقد نبت حطب الشعراء فيها . وفى وسط المدينة بأعلى الجبل عين ماء لطيفة لكنها لا تجف البتة .. وبمدينة سبتة مصايد للحوت ، ولا يعدلها بلد فى أصابة الحوت وجلبه ، ويصاد بها من السمك نحو من مائة نوع . ويصاد بها السمك المسمى بالتنين الكبير ، وصيدهم له يكون زرقا بالرماح ..) .

وقد وصف الأدريسى من بلاد المغرب ومدنه : قصر المصمودة ، وطنجة ، وقصر عبد الكريم ، وأزيلا ، والبصرة المغربية — وهى

غير البصرة العراقية بالطبع — وفاس ، واغصاب ، ومليلة .
وندرومة ، وهنين ، ووهران وغيرها .

ولم يفت الأدريسى أن يصف مدن صقلية في عهد مقامه بها .
ووصفه لمدينة بلرم البسقلية يجمع بين الدقة والطرافة ، وفيه
يقول : (أن بها — يعنى مدينة بلرم — أحسن المباني التى سارت
الركبان بنشر محاسنها ، فى بنائها ودقائق صناعاتها ، وبدائع
مخترعاتها . وهى على قسمين : قصر ، وربض ، فالقصر هو القصر
القديم المشهور فخره فى كل بلد واقليم . وهو فى ذاته على ثلاثة
أسمطة : فالسماط الأول يشتمل على قصور منيفة ، ومنازل
شامخة شريفة ، وكثير من المساجد والفنادق والحمامات ،
وحوانيت التجار الكبار . والسماطان الباقيان فيهما أيضا قصور
سامية ، ومبان فاخرة عالية ..) .

ولما كان الأدريسى قد زار عددا غير قليل من بلاد أوربة
وخاصة إيطاليا فأننا نورد هنا قطعة من وصفه لمدينة « رومة »
حيث يقول : (رومة هى على جانبى نهر الصنفر — يعنى التير —
وهى مدينة مشهورة ، ومقر خليفة النصارى المسمى البابا ، وهى
على جنوبى خور البنادقة . وبلاد رومة غربى قلفرية . ودور
سورها أربعة وعشرون ميلا ، وهو مبنى بالآجر ، ولها واد يشق
وسط المدينة ، وعليه قناطر يجاز عليها من الجهة الشرقية الى
الغربية . وامتداد كنيسة رومة ستمائة ذراع فى مثله ، وهى

مستقفة بالرصاص ، ومفروشة بالرخام ، وفيها أعمدة كثيرة عظيمة .
وعلى يمين الداخل من آخر أبوابها حوض رخام عظيم للمعمودية ،
وفيه ماء جار أبدا . وفي صدر الكنيسة كرسى من ذهب يجلس
عليه البابا . وتحت باب مصفح بالفضة يدخل منه الى أربعة
أبواب واحد بعد آخر ، يفضى الى سرداب فيه مدفون بطرس
حوارى عيسى (١) .

واهتمام الادريسي بأمكنة العبادة في المدن التي يصفها ملحوظ
معروف . ولا ننسى وصفه لكنيسة الغراب بالأندلس . وتجسد
أشارة له في موطن آخر من كتابنا هذا حين تحدثنا عن منهج
الشريف الأدرسي في وصف البلاد .

ولقد وصف الادريسي مدنا من آسيا الصغرى في خلال رحلته
هناك ، ومن ذلك وصفه لمدينة يزмир أو أزمير التركية . كما نجد
له أوصافا لمدن صيدا ، وبيروت وبيت لحم في فلسطين . وان كان
لم يتأكد لنا زيارته لتلك البلاد ، وهو هنا ناقل عن أوصاف غيره .

وكذلك لم يتأكد لنا زيارة الأدرسي للهند ، وان كان قد
ضمن كتابه « نزهة المشتاق » أوصافا لبلاد الهند ومدنها ، وبالطبع
هو هنا ناقل أيضا ، شأنه في ذلك شأن بقية البلاد والأقطار التي
لم تظأها قدماء . ونلاحظ في القسم الخاص بالهند من كتابه

(١) أوردنا بعض ما قاله الأدرسي في وصف رومة في الفصل الذي عنوانه

« بين الواقع والاساطير » ولا تكرر هنا بل جئناه للمناسبة .

« نزهة المشتاق » ، في اختراق الآفاق » أنه وصف مدنا هندية كثيرة وجزرا غير قليلة تجاورها ، فوصف سرنديب ، وجزيرة الرامى ، والديبل ، والنبيرون ، والمنصورة ، ومهران ، وقالرى . والرور ، وشروسان ، وفيربوز ، والملتان ، ومامهل ، وكنباية وغيرها .

وقليل من المدن التى وصفها الأدريسى فى كتابه قد اندثر وضاعت معالمه ، وبقي الكثير منها الى اليوم بعد أن تجددت معالمه ، وتغيرت ملامحه بالهدم والبناء ، والاضافة والتوسع ، والتخطيط الجديد . ومن هنا كانت القيمة التاريخية لأوصاف تلك المدن ، لترينا الصورة الحقيقية لها فى العصر الذى وصفها فيه الشريف الأدريسى .

وصف البحار

من المؤكد أن الشريف الأدريسى قد ركب لجة البحر المتوسط — البحر الأبيض المتوسط — غير مرة ، وأنه ركب لجة المحيط في جولة حول الشاطئ الغربي للأندلس . ولا نعرف أنه عبر البحر الأحمر أو المحيط الهندي ، لأن أوصافه لآسيا والهند كانت تقلا عن رحلات الجوابين العرب الذين سبقوه . ومع هذا فأنا نجد من الأدريسى اهتماما بالغاً بصفة البحار وما يكتنفها من مظاهر طبيعية ، وما يسكنها من عجائب البحر ، ومن يعيش في الجزر من أقوام غريبى العادات والطباع .

ويظهر أن هذه الناحية من وصف البحار وظواهرها قد فتنته إلى حد بعيد ، فهو حريص على إبرازها في كتابه « نزهة المشتاق » في اختراق الآفاق » في الموضع الذى يلائم إيرادها فيه .

وقد يصادف راكب البحر نوع من الدوامات المائية الشديدة

التي تدور فيها الأمواج بشدة عاصفة فتبتلع المراكب العالية كالجبال وتلتهمها في لحظات ، وهي دوامات شديدة الخطر على الملاح والملاحين . وتسمى الدرادير ، ومفردها دردور . ولجد الأدريسى يصف الدردور بقوله : (والدردور موضع يدور فيه الماء كالرحى دورانا دائما من غير فترة ولا سكون ، فإذا سقط اليه مركب أو غيره لم يزل يدور حتى يتلف ..) .

وقد تنبه الأدريسى عن طريق من سبقه من الرحالين العرب الى الأجوان التي تقع حول جزيرة سرنديب جنوبى بلاد الهند . فوصفها قائلا : (ويحاذى هذه الجزيرة من أرض الهند أغباب ، وهي أجوان تقع فيها أنهار ، وتسمى أغباب سرنديب ، وتدخلها المراكب السيارة ، وتمر فيها الشهر والشهرين) .

ويبدو أن الأدريسى نقل معارفه عن هذه الأغباب والأخوار عن أبى الريحان البيرونى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ . وعن أبى زيد حسن السيرافى الذى التقى مع المسعودى المؤرخ فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى وأعطاه بعض الأخبار عن البحار الهندية . وقد يكون من الملائم أن نسجل هنا ما قاله البيرونى وأبو زيد السيرافى عن هذه الأغباب ، فنبدأ بالبيرونى حيث يقول : (الغب ، وهو كالزاوية والمعطة ، يدخل من البحر الى البر ، ويكون للسفن منه مخاوف ، وخاصة من جهة المد والجزر . والخور هو شبه الغب ، ولكنه ليس من جهة دخول البحر ،

وأما هو من مجيء المياه الجارية ، واتصاله بالبحر ساكنا .
ومخاوف السفن من جهة العذوبة التي لا تستقل بالأثقال استقلال
الملوحة بها) . أما السسيرا فيقول : (ويحاذي هذه الجزيرة
— يعنى سرنديب — أغباب واسعة . ومعنى الغب الوادى العظيم
إذا أفرط فى طوله وعرضه ، وكان مصبها الى البحر . يسير
المجتازون فى هذا الغب المعروف بغب سرنديب بين شهرين وأكثر) .

وبمناسبة أغباب سرنديب ، قد يكون من الملائم أن نسجل هنا
ما دونه الأدريسى فى « نزهة المشتاق » عن هذه الجزيرة وملكها
وسكانها وغلالاتها ، فيقول : (ومن الجزائر المشهورة فى هذا
البحر المسمى هر كند ، جزيرة سرنديب ، وهى جزيرة كبيرة
مشهورة الذكر ، وهى ثمانون فرسخا فى ثمانين فرسخ — كذا —
وملك هذه الجزيرة يسكن من هذه المدن « أغنا » ، وهى مدينة
القصر ، وبها دار ملكه . وهو ملك عادل كثير السياسة ، يقظان
الحراسة ، ناظر فى أمور رعيته ، حافظ لهم ، وذاب عنهم ..
وليس يملك أحد من ملوك الهند ما يملكه صاحب سرنديب من
الدر النفيس ، والياقوت الجليل ، وأنواع الأحجار ، لأن أكثر
ذلك موجود فى جبال جزيرته ، وفى أوديتها وبحرها . واليهما
تقصد مراكب أهل الصين وسائر بلاد الملوك المجاورين له (١) .

(١) وصنف الهند وما يجاورها من البلاد . للأدريسى تحقيق الدكتور
مقبول أحمد - الهند سنة ١٩٥٤ .

وقد ترك لنا الأدريسى في « نزهة المشتاق » ، وفي القسم الخاص بالأندلس وصفا جيدا دقيقا للمحيط الأطلسي وأمواجه ورياحه ودوابه وجزره فقال : (.. وهذا الرأس هو في أقصى المغرب في نهاية انتهاء المعمور من الأرض ، محصور في البحر المظلم ، ولا يعلم أحد ما خلف هذا البحر المظلم ، ولا وقف بشر منه على خبر صحيح ، لصعوبة عبوره ، وظلام أنواره ، وتعاطف أمواجه ، وكثرة أهواله ، وتسليط دوابه ، وهيجان رياحه . وبه جزائر كثيرة ، ومنها معمورة ومغمورة ، وليس أحد من الريانين يركبه عرضا ولا ملجأ (١) ، وإنما يمر منه بطول الساحل ولا يفارقه . وأمواج هذا البحر تندفع منفلة كالجبب ، لا ينكسر ماؤها ، والا فلو تكسر موجه لما قدر أحد على سلوكه) .

وقد نقل الأدريسى عن المسعودي صاحب « العجائب » وصفا لجبل المغناطيس الذي يجذب اليه المراكب فقال : (ومن منبسة الى مدينة الباييس في البر ستة أيام وفي البحر مجرى ونصف ... ومدينة الباييس هي آخر عمالة الزنج ويتصل بها أرض سفالة الذهب . فمنها على الساحل الى مدينة تسمى « تبهنة » ثمانية أيام في البر ومجرى ونصف في البحر ، وذلك لأن ما بين هاتين المدينتين جونا كبيرا .. وبين هاتين المدينتين في البحر جبل عال عريض يقال له عجرد ، والماء قد حفر جوانبه من كل ناحية ،

(١) أي داخل في لجة الماء .

فيصوت الموج به صوتا هائلا . وهذا الجبل المذكور يجتذب الى نفسه من المراكب ما لاصقه ، فالمسافرون يتنحون عنه ، ويفرون منه) .

ولم يفت الأدريسى أن ينقل في كتابه وصفا للبال أو الحوت من دواب البحار ، فقال : (ومن هذا البحر يخرج العنبر الكثير الطيب الرائحة . وقد توجد منها العنبرة من قنطار وأكثر وأقل . وهو شيء تقذفه عيون في قعر البحر مثل ما تقذف عيون هيت — بالعراق — بالنفط ، فاذا اشتد هيجان الريح رمى به الى الساحل . وقد زعم البعض أنه روث دابة ولكنه ليس كذلك . ويوجد ببحر الصين والهند دواب كبيرة طولها مائة ذراع ، وعرضها أربعة وعشرون ذراعا ، ينبت بظهرها الصخر والذبل ، وقد تتكسر عليه المراكب . ويحكي البحريون أنهم يهاجمون هذه الدواب بالسهام ، ويحملونها على تغيير طريقها ، ويمسكون الصغار منها ، ويحمون على لحمها في القدور ، فيذوب شحما)

ويعود الأدريسى مرة أخرى الى وصف «البال» أو «الحوت» في المحيط الأطلسي فيقول : (وبرغم ما يكتنف هذا البحر من أهوال ، ومع كثافة أمواجه ، فإن به السمك الكثير يصيدونه في أماكن معلومة . وبه دواب بحرية تبلغ من عظم الجرم ما يجعل أهالي تلك الجزر يستعملون عظامها وفقارها بدل الخشب في

أبنيتهم ، ويصطفون منها مطارق وسهاما ورمحا وخناجر ،
ومقاعد ، وسلالم ، وبالجملة كل ما يصنع من الخشب) .

وقد نقل أيضا وصفا « للبابة » وهي دابة بحرية عظيمة ،
ووصفه للبابة قريب من صفته للبال أو الحوت ، ولعله هو أو
قريب منه . فيقول في صفتها : (والبابة دابة كبيرة تكون في بحر
الهند والصين ، منها ما يكون طوله نحو من مائة ذراع في
عرض عشرين ذراعا ، ينبت على سنام ظهرها حجارة صدفية ،
وربما تعرضت للمراكب فكسرتها . وحكى أيضا الربانون أنهم
يرشقونها بالسهم فتتنحى عن طريقهم ، وذكروا أيضا أنهم
يتصيدون بأصغر منها ، فيطبخونها في القدور ، فيذوب جميع
لحمها ، ويعود شحما مذابا) . ويلاحظ القارئ الكريم أن وصف
البابة هنا يكاد يكون في كثير من عباراته وألفاظه وصف البال
أو الحوت الذي ذكرناه قبل هذا بسطور .

وقد وصف الأدرسي غرائب أهل الجزر في بعض البحار
والمحيطات ، ومنها هؤلاء القوم السود العراة في جزيرة جالوس
بالمحيط الهندي ، فانهم يأكلون الناس (وذلك انه اذا سقط
في أيديهم انسان من غير بلادهم علقوه منكسا ، وقطعوه وأكلوه
قطعا . وذكر بعض رؤساء المراكب أن أهل هذه الجزيرة أخذوا

رجلا من أصحابه ، فنظر اليهم ، حتى علقوه وقطعوه قطعا
وأكلوه .. (١) .

وكانت كثرة المراجع والمصادر لدى الأدريسى عوناً له على أن
يتخير منها مادة طيبة للموضوع الذى يتحدث عنه متصلاً
بالبحار . وما أكثر وأدق حديثه عن اللؤلؤ وصيده فى البحرين
قائلاً : (وأهم جزر البحرين جزيرة أوال .. وفى هذه الجزيرة
يسكن غاصة اللؤلؤ فى المدينة التى يصل إليها التجار من جميع
أنحاء الأرض ومعهم المال الوفير ، ويترقبون شهوراً طوالاً موسم
الغوص . ويستأجر التجار الغاصة مقابل جعل معلوم يتفاوت مع
جودة الصيد واعتقاد التجار بمهارة الغاصة . ويكون الغوص فى
أغشت (٢) وشتنبر وقبل هذا إذا كانت المياه صافية . ويصطحب
كل تاجر الغواص الذى اكتراه . وتخرج المراكب جماعة من الميناء
فيما ينيف على مائتى دونج ، وهى فلك أكبر من الفلك العادى
يقسم التجار سطحها الى خمس أو ست بلنجات منفصلة ، ومع
كل غواص رفيق مساعد اسمه « المصفى » له نصيب فى الكراء .
ويخرج مع الغاصة أدلاء حذاق يعرفون المواضع ، لأن للأصداف
مواضع تغشاها ، تذهب إليها وتخرج منها حسب الوقت وتعرفها ،

(١) وصف الهند للأدريسى . طبعة الهند ص ١٨ .

(٢) يريد شهرى أغسطس وسبتمبر .

فاذا خرج الغاصة (١) من جزيرة أو ال قادهم الدليل ، حتى اذا وصلوا الى المواضع المعلومة خلع الدليل ملابسه وغاص ونظر . فاذا وجد المكان مناسباً خرج وأمر بطي الشراع ورمى الأناجر ، وكذلك تفعل بقية الدوانج . ويبدأ الغواصون في العمل (.

ويمضى الأدريسى في وصف عملية الصيد منذ أن يستتر الغواص سوءته ، ويسد خياشيمه ، ويحمل سكينه وكيسه والحجر الثقيل المعلق بخيط رفيع متين ، الى أن يخرج من قعر البحر حاملاً صيده الثمين فيلبس ملابسه وينام ، وهنأ يأخذ « المصفى » في فتح المحار بحضور التاجر الذى يجمع ما يخرج من اللؤلؤ ويسجله في زمام (٢) . . ويأكل الجميع قبيل المغرب ، وينامون طول الليل استعداداً لعمل شاق مقبل في يوم جديد .

الحق أننا نعيش مع الأدريسى في « نزهة المشتاق » ساعات غير قليلة في قراءة أوصافه الممتعة الغريبة للبحار وغرائبها ، مما يؤكد لنا اهتمامات هذا الرجل — حتى ولو كان ناقلًا — بهذا العالم الغنى العجيب ..

(١) الغاصة جمع غائص ، وهو الغواص الذى يغوص في الماء .

(٢) الزمام هو دفتر أو سجل خاص يدون فيه الإنسان ما يريد تدوينه

وهو تعبير اصطلاحى .

الإدريسي ورحلة المغرّين

حين تحدث الإدريسي في كتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » عن مدينة لشبونة أشار الى جماعة من فتيان العرب اسمهم « المغررون » خرجوا في مغامرة بحرية كشفية الى المحيط ليعرفوا ماوراءه ، ولهم في لشبونة حتى العصر الذي عاش فيه الإدريسي درب ينسب اليهم يعرف بدرب المغرّين . و لا بأس أن نسجل هنا هذه القصة بقلم الإدريسي نفسه لما فيها من طرافة من جهة ، ولكيلا يخل التصرف بمعانيها الصحيحة من جهة أخرى . يقول الإدريسي في النزهة : (ومن مدينة لشبونة كان خروج المغرّين في ركوب بحر الظلمات ، ليعرفوا ما فيه والى أين انتهاؤه كما تقدم ذكرهم ، ولهم بمدينة لشبونة بموضع من قرب الحمة درب منسوب اليهم يعرف بدرب المغرّين الى آخر الأبد . وذلك أنه اجتمع ثمانية رجال ، كلهم أبناء عم ، فأنشأوا مركبا حمالا وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر . ثم دخلوا البحر في

أول طاروس الريح الشرقية، فجروا بها نحواً من ١١ يوماً، فوصلوا إلى بحر غليظ الموج ، كدر الروائح كثير التروش ، قليل الضوء ، فأيقنوا بالتلف ، فردوا قلاعهم في اليد الأخرى ، وجروا في البحر في ناحية الجنوب ١٢ يوماً ، فخرجوا إلى جزيرة الغنم ، وفيها من الغنم مالا يأخذه عد ولا تحصيل ، وهي سارحة لا راعي لها ، ولا ناظر إليها . فقصدوا الجزيرة فنزلوا بها ، فوجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة تين برى ، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها ، فوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحد على أكلها فأخذوا من جلودها ، وساروا مع الجنوب ١٢ يوماً إلى أن لاحت لهم جزيرة ، فنظروا فيها إلى عمارة وحرث ، فقصدوا إليها ليروا ما فيها ، فما كان غير بعيد حتى أحيط بهم في زوارق هناك ، فأخذوا وحملوا في مركبهم إلى مدينة على ضفة البحر ، فأنزلوا بها في دار ، فأرأوا رجالاً شقرا زعرا شعور رموسهم ، شعورهم سبطة ، وهم طوال القدود ، ولنسائهم جمال عجيب ، فاعتقلوا منها في بيت ثلاثة أيام ، ثم دخل عليهم في اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربى ، فسألهم عن حالهم وفيما جاءوا ، وأين بلدهم ، فأخبروه بكل خبرهم ، فوعدهم خيرا ، وأعلمهم أنه ترجمان الملك . فلما كان في اليوم الثانى من ذلك اليوم أحضروا بين يدى الملك ، فسألهم عما سألهم الترجمان عنه ، فأخبروه بما أخبروه به للترجمان بالأمس : من أنهم اقتحموا البحر ليزوا ما به من الأخبار والسجائب ، ويقفوا على نهايته . فلما

علم الملك ذلك ضحك ، وقال للترجمان : خبر القوم أن أبى أمر قوما من عبيده بركوب هذا البحر ، وأنهم جروا فى عرضه شهرا ، الى أن انقطع عنهم الضوء ، وانصرفوا من غير حاجة ولا فائدة تجدى . ثم أمر الملك الترجمان أن يعدهم خيرا ، وأن يحسن ظنهم بالملك ، ففعل . ثم صرفوا الى موضع حبسهم ، الى أن بدأ جرى الريح الغربية ، فعمر بهم زورق ، وعصبت أعينهم ، وجرى بهم فى البحر برهة من الدهر . قال القوم : قدرنا انه جرى بنا ثلاثة أيام بلياليها ، حتى جئنا بنا الى البر ، فأخرجنا وكتفنا الى خلف ، وتركنا بالساحل الى أن تضحى النهار ، وطلعت الشمس ، ونحن فى ضنك وسوء حال ، من شدة الأكتاف ، حتى سمعنا ضوضاء وأصوات ناس فصحننا بأجمعنا ، فأقبل القوم الينا ، فوجدونا بتلك الحال السيئة ، فحلونا من وثاقنا ، وسألونا فأخبرناهم بخبرنا ، وكانوا برابر ، فقال لنا أحدهم : أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم ؟ فقلنا : لا ، فقال : أن بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين . فقال زعيم القوم : وأسفى ! فسمى المكان الى اليوم « أسفى » وهو المرسى الذى فى أقصى المغرب ..) .

وقد أورد المغفور له الأمير شكيب أرسلان هذه القصة فى كتابه « الحلل السندسية » وعلق عليها قائلا : (قصة الأخوة المغرورين هذه قصة شهيرة صارت الآن معلومة عند أهل هذا العصر ، بعد أن بقيت مدة طويلة مدفونة فى كتاب الأديبى ،

هذا الذى لم تتداوله الأيدي، وانما كان يطلع عليه بعض المستشرقين من علماء الأفرنج ، وبعض المطلعين من العرب على خزائن الكتب ، و قليلا ما هم ، وبقي الأمر كذلك الى سنة ١٨٩٢ م وكنت فى باريس ، وكان عمري ٢٢ سنة ، فقرأت فى جريدة النشرة الاسبوعية التى كان ينشرها الأستاذ العلامة ابراهيم الحوراني باسم جمعية الأميركيين فى بيروت، مقالة مترجمة ، عن مجلة أميركية . لا أتذكر الآن اسمها ، يقول فيها بمناسبة كشف قارة أميركة : انه شائع من جملة الأخبار كون العرب وصلوا الى أميركة قبل كولمبوس ، وذلك بركوبهم البحر قاصدين الغرب من جهة الأندلس. ويقول : ليس عندنا نحن معلومات عن هذا الشأن تستند الى وثائق خطية، وانما هو كلام متواتر بين الناس. فكنا نود لو عرفنا ما عند العرب من هذا الموضوع . وأردف الأستاذ الحوراني ذلك بنداء الى علماء العرب أن أفتونا بما عندكم عن هذه المسألة) ومضى الأمير شكيب أرسلان فى تعليقه ، وحكى قصة عثوره على النص العربى فى كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » للأدريسى وتصفح له لأول مرة ، ونسخه ما ورد عن قصة الأخوة المغررين بتمامه ، ونشره مقالا عن ذلك فى جريدة ثمرات الفنون ببيروت . فكان — رحمه الله — بذلك أول من نبه الأذهان من العرب المحدثين الى ورود قصة الاخوة المغررين فى « نزهة الآفاق » . واستنتج الأمير شكيب أن كريستوف كولمبوس لم يكن يجهل قصة المغررين

هذه ، فاستنتج أن وجود بر ، أو أرض كبيرة خلف بحر الظلمات — أو المحيط الأطلنطي — أمر لا بد منه . ولهذا أقدم على رحلته التي كانت كشفا رائعا موفقا للعالم الجديد . وختم الأمير شكيب تعليقه على قصة الأخوة المغربيين (بأن غاية ما يستفاد من العبرة فيها أن العرب حاولوا اختراق بحر المحيط ، والوصول الى البر الذي يقال له اليوم أميركا ..) .

ومنذ ذلك الاتجاه الذي أبداه الأمير شكيب في هذه القضية والمفكرون العرب المحدثون والمعاصرون يؤيدون « شكيبا » في وجهة نظره ، ويسيروا في الخط الذي سار فيه ، ويقولون ان كشف كولبوس لأمريكا كان على هدى من معلومات العرب السابقة ومغامرات بعضهم . وقد مال بعض الباحثين الأجانب الى احتضان هذا الرأي ، فالعالم الفرنسي جوتيه (١) يقرر أن تحقيق الدوران حول افريقية بوساطة فاسكودي جاما ، وكشف أمريكا على يد كولبوس كان متعذرا بدون ارتقاء علم الجغرافية عند العرب ، وان هذين الكشفيين العظيمين تما بعقول العرب ومواردهم وأشخاصهم تحت امرة النصارى . ونرى الأب أنستاس مارى الكرملى يكتب بحثا ضافيا في مجلة المقتطف سنة ١٩٤٥ عنوانه : (عرف العرب أميركة قبل أن يعرفها أبناء الغرب) ، فيستند الى رحلة الأخوة المغربيين ويجعلها أساسا للمقال كله . ويميل الدكتور

(١) الاسلام والحضارة العربية : لمحمد كرملى ص ٢١٢ .

زكى محمد حسن الى الاعتقاد بأن قصة هؤلاء الأخوة لم تكن مجهولة في العصور الوسطى ، ولعل كولمبوس كان يعرفها ويعرف قصصا أخرى من أخبار من حاولوا ركوب المحيط الأطلسي وكشف غوامضه (١) . أما عباس محمود العقاد فيرى انه من الخرائط المرسومة والآراء النظرية التي نقلت عن العرب تلقى خريستوف كولمبوس صورته عن الكرة الأرضية (٢) . وهذا التلقى وهذه الصورة هي التي دفعت كولمبوس الى المخاطرة بهذه الرحلة الرائعة . ولكن العقاد يقف من قصة الأخوة المغررين موقفا آخر ، فقد خالف الأب أنستاس ماري الكرملى في هذا الرأي ، كما خالفه في أن الأب أنستاس أراد أن ينسب الفضل الأول في معرفة كولمبوس بالعالم الجديد الى راهب من القرن السادس الميلادى اسمه برندان . ويشك عباس محمود العقاد في القصتين معا : قصة الراهب برندان ، وقصة الأخوة المغررين ، ويعدها هي وما جرى مجراها أقاصيص ملفقة تحيط بها الشكوك (٣) .

وعلى حين يشك عباس محمود العقاد في قصة الأخوة المغررين فان الأستاذ أحمد أمين يذهب مذهب الأمير شكيب أرسلان ، والأب أنستاس ماري الكرملى ، ويؤكد أن كولمبوس وقف على

(١) الرحالة المسلمون في العصور الوسطى : لزكى محمد حسن ص ٥٠

(٢) أثر العرب في الحضارة الاوربية ص ٤٧ .

(٣) المصدر نفسه ص ٥٣ .

رحلة هؤلاء الاخوة واستفاد مما ورد عنهم ، ويستنتج في النهاية أن العرب (كانوا أسبق في اكتشاف أميركا ، لولا سوء الظروف التي منعت من نجاحهم (١) .

ويبدو أن الأستاذ محمد بهجت الأثرى يميل الى تصديق هذه القصة وقد أشار اليها في محاضرة ألقاها بالمجمع العلمي العراقي ، ونشرت في عدد من أعداد مجلة المجمع . واذا كان لنا أن نستأنس برأي باحث عربي مختص بعلم الجغرافية في هذه القضية فأن الدكتور محمد محمود الصياد يرى أن هذه الحكاية من باب القصص الذي لا يقوم لدينا الدليل القاطع على صحته (٢) وحسبنا أن ننقل هنا ما كتبه حول هذا الموضوع حيث قال : (ولا نريد أن نغالي فنقول ما قال به البعض بأن العرب قد اكتشفوا أميركا بالفعل قبل أن يكتشفها كولومبوس بعدة قرون ، فقصة المغربين الذين تحدث عنهم المسمودي في مروج الذهب، فذكر انهم خاطروا وركبوا بحر الظلمات «ومن نجا منهم ومن تلف وما شاهدوا منه وما رأوا» ثم وصف الأديسي رحلتهم في كتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » هي كلها من باب القصص الذي لا يقوم لدينا الدليل القاطع على صحته . ولعل

(١) ظهور الاسلام ج ٣ ص ٢٩٤ .

(٢) الر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

بعض العرب قد فكر فعلا في ارتياد بحر الظلمات ، فلم يصلوا الى غاية) .

وقد هدانا الدكتور محمد محمود الصياد الى مصدر عربى آخر أقدم من الأدريسى حول جماعة من العرب في الأندلس ركبوا بحر الظلمات — أو المحيط الأطلسى ، فغرروا وخاطروا بأنفسهم متجهين الى الغرب . وهذا المصدر الأقدم من الأدريسى هو المسعودى المؤرخ صاحب « مروج الذهب » والمتوفى سنة ٣٤٦ هـ . ومن الغريب أن الأمير شكيب أرسلان تشبث بنص الأدريسى عن الاخوة المغررين الذى اهتدى اليه وهو فى باريس سنة ١٨٩٢ ، ولم بتثبت بحكاية المسعودى عن المغررين ، مع أن كتاب المسعودى كان أكثر تداولاً من كتاب نزهة المشتاق . ويظهر أن الأمير شكيب فرح أشد الفرح حينما هدته مصادفة سعيدة فى المكتبة العامة بباريس الى نسخة من كتاب « نزهة المشتاق » ، فوقع فيه بعد لحظات على النص الذى يريد ..

وقد سار الباحث المغربى عبد الله بن العباس الجرارى فى هذا الدرب المؤيد لقضية معرفة العرب لأمريكا قبل كولبوس ، وأيد ذلك فى الفصل الذى كتبه بعنوان : « اكتشاف بعض أجزاء الأرض المعروف بالعالم الجديد » . وقد عزز وجهة نظره هذه بما كتبه الدكتور جيفريس الأستاذ بجامعة « ويتواتر ستراند » الأمريكية من أن العرب هم الذين اكتشفوا أمريكا قبل كريستوف

كولومب بنحو من ثلاثة قرون أو أربعة . ويرى هذا الباحث الأمريكي أن المزروعات الأفريقية دخلت الى أمريكا على يد العرب ..

ولم يفت باحثا مؤرخا مثل الدكتور «فيليب حتى»، أن يشير الى قصة الأخوة المغررين التي أوردها الإدريسي ، ولكنه لم يجعل منها وحيا لكولومبوس هداه الى كشف العالم الجديد ، بل جعلها (من الأخبار التي تنعكس عن الحركة البحرية الناشطة في المحيط الأطلسي « بحر الظلمات » (١) .

وقد جمع المستشرق كراتشكوفسكي بين الخبر الذي رواه المسعودي عن فتیان قرطبة وأحداثهم الذين ركبوا المحيط الأطلسي في مغامرة بحرية عادوا منها سالمين بغنائم واسعة ، وبين قصة المغررين التي أوردها الإدريسي في نزهة المشتاق ، واستنتج من الأخيرة أن نقاطا عديدة منها تدخل في محيط الأدب الشعبي : الفولكلور العالمي للقرون الوسطى (٢) .

وممن ذكر قصة الأخوة المغررين المرحوم أحمد زكي باشا في مقال له بمجلة المقتطف ، والمرحوم جرجي زيدان ، والدكتور شوقي ضيف في كتابه « الرحلات » . وقد يكون تناولها باحثون آخرون معاصرون لم نقف عليهم .

(١) تاريخ العرب العام . فيليب حتى ص ٦٣٠ .

(٢) تاريخ الادب الجغرافي العربي ص ١٣٧ .

بقى أن نعرف سر تسمية هؤلاء الأخوة بالمغربين ، أو المغرورين . والمغرر هو الذى يغرر بنفسه ويركبها المخاطر والأهوال . ولعلها تسمية جاءت من النص القديم عند المسعودى . أما المغرورون فمعناها الذين اغتروا بأنفسهم وركبوا مالا يستطيع ركوبه ، واللفظان من جذر واحد . ويميل أكثر الكتاب اليوم الى استعمال لفظة « المغربين » ، وإن كان القسم المطبوع فى أوروبا من « نزهة المشتاق » يسميهم المغرورين .

ولا معنى لأن تضبط كلمة « المغربين » بشدة وفتحة على الراء الأولى ، كما جاء عند كراتشكوفسكى ، والأجود أن تضبط الراء الأولى بشدة وكسرة — على وزن مدرس — لأن الفعل غرر الرجل بنفسه أى أركبها الخطر . ونص المسعودى نفسه يؤكد لنا هذا الضبط حيث يقول : أخبر من غرر وخاطر بنفسه . ويميل المستشرق المشهور « آدم ميتز » الى تسميتهم بالمغربين أى المتجهين غربا ، ولا أدري من أين أخذ هذه التسمية^(١) ، ولا فى أى مصدر وجدها .

(١) انظر الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع : لآدم ميتز ، ج ٢ ص ٣٦٧

أوروبا والأندلس وإفريقية عند الإدريسي

لم يتردد أحد من الباحثين الذين تحدثوا عن الإدريسي في الحديث عن القيمة العلمية للمعلومات التي قدمها في كتابه «نزهة المشتاق» عن أوروبا والأندلس . وإذا كانت معلوماته عن الأندلس ومدنها وأصقاعها تتسم بالدقة التي ترجع الى مشاهداته الشخصية ، وما كان يتمتع به من ملاحظة دقيقة ، فإن المعلومات التي دونها عن أكثر بلدان أوروبا — وهي المعلومات التي قام بجمعها الرواد والرسول الذين أوفدهم الملك روجر الثاني — تمتاز بالدقة في أكثرها ، وتتمتع بدرجة عالية من الثقة التي أصبحت حديث أكثر المستشرقين ومجال تقديرهم . ويرد المستشرق الايطالي ألدوميلي هذه الدقة الى اقامة الإدريسي في بلد مسيحي كصقلية ، والى نشاطه في صقلية . ويقول ميللي في هذا الصدد : (وبالنظر الى أقامته في بلد مسيحي ، ونشاطه في

صقلية ، كانت بياناته عن البلدان المسيحية أعظم دقة وأوسع مدى من كل الجغرافيين الآخرين من العرب) . والحق أن الظروف التي قضت على الأدريسى أن يعيش في صقلية قريبا من الملك روجر المشجع للعلماء قد هيأت له أنه يوسع مجال معارفه عن أوروبا بهذه البعثات التي كان يذهب فيها الرسل والمبعوثون فيجمعون البيانات والمعلومات ، ويقدمونها الى الأدريسى الذي كان بدوره يدقق في اختيارها على ضوء الاتفاق بين الروايات أو الاختلاف بينها .

ويؤكد لنا كراتشكوفسكى في مستهل دراسته الجيدة الواعية عن الأدريسى أنه ليس هناك مؤلف حفظ لنا معطيات وافرة ذات قيمة كبرى عن بلاد الغرب كما فعل الأدريسى . ويتعرض كراتشكوفسكى مرة أخرى لوصف الأدريسى لأوروبا الغربية : بما فيها من فرنسا وألمانيا وسكوتلاندة وإيرلندة وسواحل بحر الشمال ، فيصفه بأنه وصف ينم عن المقدرة والمهارة التي اقتضتها الظروف العلمية لذلك العهد . ويقرر المستشرق النمساوى توماشك أن وصف الأدريسى لبلاد البلطيق أكثر دقة من وصفه لألمانيا وبولندة وروسيا ، كما يصرح بأن رومانيا وشبه جزيرة البلقان قد ظفرتا بتفصيل كثير ومعلومات غزيرة ، ويرد ذلك الى الحملات الصليبية التي كانت قد بدأت منذ عام ١٠٦٤ م ، فوسعت ميدان التعرف الى هذه البلاد ، كما يرده الى نمو

العلاقات التجارية بين الغرب الفرنجى الرومانى ، والشرق
الأغريقى الصقلبى .

ويظهر أن الذى فعله الأدريسى فى وصف شبه جزيرة البلقان
لا يقل عما فعله فى بقية البلاد الأوربية التى تحدث عنها ، بل يعد
هذا الوصف نموذجا للمنهج الذى اتبعه . فهو يتحدث عن الأحوال
التجارية ، والعلاقات التجارية بين هذه البلاد ، كما يتحدث عن
وسائل المواصلات التى تعد طرقا رئيسية هامة للتجارة .

ولم يفت المستشرق الاسبانى بالنشأ أن يشير فى كتابه
القيم الى القيمة العلمية للمعلومات الصحيحة ، والمادة
الوافرة التى قدمها الأدريسى فى نزهة المشتاق عن البلاد الأوربية
التي تسكنها شعوب تعنتق الديانة المسيحية .

ولاشك أن الموقع الفريد الذى تتمتع به جزيرة صقلية فى
البحر المتوسط — الذى يسمى خطأ البحر الأبيض المتوسط —
كان من أهم العوامل التى ساعدت الأدريسى على تحصيل معلوماته
الدقيقة عن أوربا وعن البلاد التى وصفها فيها . وقد أبرز هذه
الحقيقة الأستاذ الباحث الهندى نفيس أحمد حيث قال : (وحينما
كان الأدريسى يعالج اللمسات الأخيرة فى اتمام مؤلفه ، كان قد
حظى بميزات كبرى بتيحها وضع صقلية فى مركز البحر المتوسط
تقريبا ، ووقوعها عند ملتقى السفن والملاحين القادمين من المياه
الشمالية ، ومن المحيط الأطلنطى ومن البحر المتوسط) .

فوضع جزيرة صقلية في البحر المتوسط من ناحية ، ووضعها السياسي الجديد من حيث كونها تابعة لأسرة نورماندية فاتحة من ناحية أخرى ، واهتمامات الملك روجر الثاني من ناحية ثالثة ، وذكراء الأدرسي نفسه وشدة تنبهه للتدقيق في المعلومات التي يحملها اليه الرسل والرواد من ناحية رابعة ، كل ذلك قد أدى الى الدقة في وصف الأدرسي لأقاليم أوربا ، تلك الدقة التي كانت ولا تزال موضع اعجاب وتقدير من عدد غير قليل من الباحثين والمستشرقين .

ولم يفت المستشرق الروسي « مينورسكى » الذي ولد في روسيا سنة ١٨٧٧ م وعاش في إنجلترا ، والذي حرر مادة (روس) . في دائرة المعارف الاسلامية .. لم يفته أن يشير الى جهد الأدرسي في أصالة المعلومات التي زودنا بها في كتابه نزهة المشتاق . ويقول مينورسكى في هذا الصدد : (والأدرسي هو الكاتب الوحيد الذي يمدنا بمعلومات أصيلة عن الروس بعد القرن العاشر — الميلادى — فهو يتناولهم في كلامه عن الأقليم السادس ، القسم الخامس « نهر الروس ، المدن التي على نهر الدنيبر » ، وعن الأقليم السابع ، القسم الرابع والقسم الخامس « منابع الدنيستر ، روسيا ، وقومانيا أى أرض القومان ») .

وحين نبهنا الباحثون الأجانب المنصفون الى القيمة المسالية لمعلومات الأدرسي عن أوربا رأينا الكتاب العرب يتابعون هؤلاء

الغربيين في تقديرهم . فالدكتور زكى محمد حسن يقول في هذا الشأن : (.. والواقع انه — أى الادريسي — بهذه البيانات امتياز على سائر الجغرافيين المسلمين ، فأن من سبقه منهم لم يستطع الكتابة على أوروبا في شيء من الدقة ، ولم يظفر بمشاهدات أولئك الرواد الذين أوفدهم الملك حتى الى أقصى الأطراف مثل اسكندناوة . أما الذين خلفوه فقد عمد معظمهم الى نقل ماكتبه هو في هذا الصدد ..) (١) .

ويشير الدكتور شوقي ضيف الى هذه الحقيقة قائلا : (ولا يقف الادريسي بكتابه عند وصف العالم الاسلامى ، بل يضم اليه وصفا دقيقا للعالم المسيحى في أوربة . مفيدا من الرحالة الذين وضعهم روجر تحت امرته ، وقد أوفدهم الى بلدان أوربة المختلفة ، ونقلوا اليه كثيرا من المعلومات عن فرنسا وإيطاليا وألمانيا وأواسط أوربة وشرقها ، (٢) . ويسمى الادريسي انجلترة باسم « انكرطرة » ، وهو طبعا من تحريفات الترجمة والتعريب ، كما يسمى الأنجليز باسم « الأنكلسية » ، وهو تحريف آخر . وحين يتحدث عن البحر الذى يكتنف انجلترة من جنوبها — وهو جزء من المحيط — يقول : (وأهم الملاحين في هذا البحر هم

(١) الرحالة المسلمون في العصور الوسطى : د . زكى محمد حسن

ص ٦٥ .

(٢) الرحلات : لشوقي ضيف ص ٢٠ .

المعروفون باسم الأنكلسية ، أى سكان الكرطرة ، وهى جزيرة عظيمة بها مدن كبيرة ..) .

أما الأستاذ محمد بهجت الأثرى فيتناول هذه القضية بقوله :
(ويعبد الأدريسى أهم من عرف أوربة الغريبة والشمالية من الجغرافيين الاسلاميين) .

ولا يقل وصف الأدريسى للأندلس دقة وضبطا عن وصفه للبلاد الأوربية الأخرى . وإذا كانت أوربا بعيدة عن متناوله إلا عن طريق المبعوثين والرسل الذين أوفدهم بأذن روجر الثانى ، فإن أسبانيا كانت فى طاقته ، وقد زارها حينما كان يتلقى العلم بقرطبة ، ولما كان فيه طبع الرحالة الأصيل فقد انتهاز الفرصة وزار أكثر بلادها ومدنها ، وتحدث عنها حديث البصير الخبير . وكثيرا ما تحدث عن هذه المعاينة بقوله : وقد رأيتاه عيانا ، أو شبيهه من العبارات الدالة على الرؤية العينية . وفى فصل خاص بالمعاينة والمشاهدة عند الأدريسى ، وفصل آخر عن منهج الأدريسى فى وصف البلاد من كتابنا هذا تتضح لنا دقة الأدريسى فى وصف الأندلس على وجه الخصوص .

ومن حسن الحظ أن مؤرخا دقيقا كالدكتور حسين مؤنس قد تظن الى هذه المعرفة الدقيقة عند الأدريسى فى وصف الأندلس فقال من دراسته عنه : (وصف الأدريسى للأندلس فى معظم

فواحيه يدل على أنه يعرف ما يتكلم عنه ، فيينا نراه في وصف مصر — مثلا — يعتمد في الغالب على ابن خرداذبة وابن حوقل دون أن يراجع ما ينقله أو يحققه ، نجده في الأندلس ينقل عن هذين وغيرهما ممن ذكرنا ، ولكنه يراجع ويدقق ويقيس ، بحيث لا نكاد نستدرك عليه خطأ يستحق الذكر في أوضاع المدن والأعلام الجغرافية أو خصائصها . وعرضه لهذه الجغرافية أشبه برحلة ينتقل فيها الانسان من موضع الى موضع ، ومن ناحية الى ناحية ..) .

وإذا ما تنقلنا من الأندلس وأوربة الى أفريقية . رأينا الادريسي يحظى بين الباحثين بوصف معلوماته هنا بالدقة التي عرف بها هناك . وعلى الرغم من أنه كان ينقل عن بطليموس في هذا الميدان فإنه لم يكن مجرد ناقل مقلد ، وإنما كان ينقل عن معرفة ووعي . وقد أشار المستشرق النمساوي مچيك *mzik* الى هذا بقوله : (فبعض مؤرخي الجغرافيا يرى أن الادريسي في وصفه لأفريقية لم يترسم خطأ بطليموس دون وعي ، فوصفه لمجرى النيل الغربى أى نهر النيجر قد وكدت صحته الاكتشافات الجغرافية في القرن التاسع عشر ، وهو على معرفة جيدة بالتجارة مع داخل أفريقية ، وقد أورد أسماء المراكز التي ازدهرت فيها الحضارة الاسلامية في ذلك الوقت مثل غانا ، وسلا ، وتكرور) . وبلغ من دقة الادريسي في وصفه لأفريقية والنيل أن مؤرخنا

ابن خلدون أخذ منه أكثر أوصافه وزاد عليها . وما أقرب ما قاله الأدريسى في هذا الصدد مما قاله ابن خلدون حيث يقول : (وأما الجزء الأول من هذا الأقليم ففيه مصب النيل الآتى من مبدئه عند جبل القمر كما ذكرناه . ويسمى نيل السودان . ويذهب الى البحر المحيط فيصب فيه عند جزيرة أوليك . وعلى هذا النيل مدينة سلا ، وتكرور ، وغانة . وكلها لهذا العهد في مملكة مالى من أمم السودان ، والى بلادهم تسافر تجار المغرب الأقصى . وبالقرب منها من شمالها بلاد لمتونة ، وسائر طوائف الملمين ، ومفاوز يجولون فيها . وفي جنوبى هذا النيل قوم من السودان يقال لهم « الملم » وهم كفار ، ويكتونون في وجوههم وأصدانهم ، وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسلبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم الى الغرب ، وكلهم عامة رقيقهم) .

والى معلومات الأدريسى الدقيقة عن النيجر ، وأفريقية ، ومنابع النيل يشير « كامبل » في كتابه « الجغرافيا في العصور الوسطى » فهو يقول : (وقد أمدنا الأدريسى بعد ذلك في منتصف القرن الثانى عشر الميلادى بمعلومات عن النيجر في الجزء الواقع أعلى تمبكتو ، وعن أقليم منابع النيل ومناطق كبيرة من السودان في دقة لا ينازع فيها ، وذلك في ثنايا جغرافيته (نزهة المشتاق ، في اختراق الآفاق) ، وان جودة معلومات الأدريسى عن افريقية وقيمتها الحقيقية لتثيران اعجاب الجغرافيين المحدثين) .

وقد سجل الباحث الهندي « نفيس أحمد » هذا النص في كتابه القيم الذى عنوانه (جهود المسلمين فى الجغرافيا). كما أن المرحوم عباس محمود العقاد لم تفتحه الإشارة الى الأدريسى ، وسبقه فى ميدان الحديث عن منابع النيل حديثا صحيحا ، فقال فى هذا الشأن : (ولا يعرف أن أحدا سبق الأدريسى الى بيان الحقيقة عن منابع النيل العليا كما حفظت فى الخرائط التى بقيت فى بعض المتاحف الأوربية ، ومنها خريطة محفوظة بمتحف سان مرتين الفرنسى ، ترسم النيل آتيا من بحيرات الى جنوب خط الاستواء ، بعد أن تخطيط الجغرافيون فى وصف منابعه وتعليل فيضانه منذ أيام هيرودوت الملقب بأبى التاريخ) (١) .

أما شرق أفريقية فقد وصفه الأدريسى وصفا دقيقا ولو لم يرحل اليه ، ولكنه كان هنا ناقلا دقيقا ، ويشير الدكتور جمال زكريا قاسم الى هذا بقوله من بحث عنوانه (دور العرب فى كشف أفريقيا) نشر بمجلة عالم الفكر التى تصدر بالكويت ، العدد الرابع سنة ١٩٧١ : (ومما يستلفت النظر أن الأدريسى لم يرحل الى شرق أفريقيا كما فعل المسعودى ، ولكنه استمع كثيرا ، وقرأ أكثر ، فأتى بدقائق مفصلة عن هذا الأقليم خاصة) . وكذلك غرب أفريقية — ولاسيما غالة — فقد وصف الأدريسى ما كان عليه

(١) أثر العرب فى الحضارة الأوربية : عباس محمود العقاد ، ص ٢٦ .

ملوك غانة من الثراء والعلاقات التجارية بينهم وبين المغرب الأقصى (١) .

ومن الباحثين الغربيين الذين أنصفوا الأدرسي في مجال بياناته الدقيقة عن أفريقية الكاتب « بازل دافيدسون » في كتابه « أفريقية تحت أضواء جديدة » الذي نشرت ترجمته العربية بيروت سنة ١٩٦١ .

(١) مجلة عالم الفكر الكويتية عدد مارس سنة ١٩٧١ وقد نقل الكاتب هذا عن الدكتور عبد الرحمن زكي في دراسته : (المراجع العربية للتاريخ الاسلامي في غرب افريقيا) .

جوانب متعددة من الإدريسي

مما يلفت النظر عند الشريف الإدريسي أنه كان رجلا متعدد جوانب المعرفة ، موزع ألوان الثقافة ، فلم يقتصر على فرع من المعرفة دون فرع، ولم ينجس نفسه في دائرة علم الجغرافية والفلك لا يتعداها الى غيرها ، ولكنه خاض ميادين متنوعة بالإضافة الى علم الجغرافية والخرائط الذي برع فيه ، واشتهر به حتى صار من أعظم الجغرافيين العرب .

ولقد اهتم الباحثون والمؤرخون بالإدريسي جغرافيا ومصور خرائط، وتحدثت عنه في هذا الكتاب كل المؤلفات التي تتناول تقدم العرب في الجغرافية والعلم . ومن هنا جاءت سيرته في كتب العلوم عند العرب أكثر مما جاءت في كتب التاريخ الأدبي . ومن هنا أيضا كان اهتمام جرجي زيدان به في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » لأنه يؤرخ في كتابه للعلوم الدخيلة كالطب والفلسفة

والطبيعيات وعلم الحيوان والنبات والفنون الجميلة والجغرافية وما إليها بالإضافة إلى التاريخ للشعر والأدب والعلوم الإسلامية وعلوم اللغة . ولقد كانت ترجمة جرجى زيدان للشرىف الأدرىسى فى خلال الفصل الذى عقده فى كتابه عن الجغرافية والرحلات عند العرب فى العصر العباسى الرابع ، وكان من الذين ترجم لهم زيدان فى هذا الفصل : أبو عبيد البكرى ، والمازنى الغرباطى ، وابن جبير الرحالة ، والسائح الهروى ، وابن عبد العزيز ، وياقوت الحموى ، وعبد اللطيف البغدادى . ومن هنا أيضا نجد اشارات لا بأس بها الى الشرىف الأدرىسى فى كتب « الرحلات » لشوقى ضيف ، و « الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى » لزكى محمد حسن ، و « العلم عند العرب » لألدوميللى الايطالى ، و « العلوم عند العرب » لقدرى حافظ طوقان ، و « الرواد » لفؤاد صروف ، و « رواد الشرق العربى فى العصور الوسطى » لنقولا زيادة ، و « تقدم العرب فى العلوم والصناعات » لعبد الله الجرارى ، و « جهود المسلمين فى الجغرافية » لنفيس أحمد الهندى ، و « العرب والملاحة فى المحيط الهندى » لجورج فضل حوارنى ، و « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » لأغناطيوس كراتشكوفسكى .

ويبدو أن شهرة الأدرىسى فى علم الجغرافية والخرائط قد طغت على مكاته فى نواح أخرى من الطب ، وعلم النبات ، والصيدلة، والشعر. مما جعل المستشرق الروسى كراتشكوفسكى

يحكم على الرجل بأنه (كان الى حد ما مؤلفا جامعا — أى
موسوعيا — بل وعرفت له بعض الأشعار منذ وقت طويل) .

وقد يكون من الطريف هنا أن نذكر بعض الأشعار التي
رواها صلاح الدين الصفدى للشرىف الادريسى وهو يترجم
لسيرته فى باب المحمدين من الجزء الأول من كتابه . وهى أشعار
تدل على ميل الادريسى الى الحكمة ، والى وصف آلام الغربة ،
والشكوى من ضياعه فى خضم الاغتراب مع فقدان الأنصاف
والتقدير ، فمن شعره فى الغربة قوله :

ليت شعرى ! أين قبرى	ضاع فى الغربة عمري
لم أدع للعين ما تشتاق	فى بر ، وبحر
وخبرت الناس والأر	ض لدى خسير وشر
لم أجد جارا ولادا	را كما فى طى صدرى
فكأنى لم أسر الا	بميت أو بقفر ...

وله أبيات أخرى فى الاغتراب يقول فيها :

ان عيا على المشارق أن أر	جع عنها الى ذيول المغارب
وعجيب يضيع فيها غريب	بعد ما جاء فكره بالغرايب
ويقاسى الظما خلال أناس	قسموا بينهم هدايا السحاب

ومن حكمه قوله :

دعنى أجل ما بدت لى سفينة أو مطيه
لا بد يقطع سبرى أمنية ، أو منيه

وقوله :

ومن قبل أن أمشى على قدم المنى
سعى قدمى فى المدح سعىا على الرأس

ومن شعره الوصفى قوله فى صفة ليل :

وليل كصدر أخى غمة
قطعناه حتى بلغنا النجاح

وبدر السماء بدا فى النجوم

كما لاح فى الناس بدر السماح ..

ولم يملك الأديب المؤرخ الذواقة صلاح الدين الصفدى
صاحب «الوافى» نفسه من أن يعلق على هذه الأبيات التى رواها
بقوله : (قلت : شعر جيد) . وقد كان كراتشكوفسكى يشير
الى تلك الأشعار — دون رواية لها — وهو يقول فى حديثه عن
الأدريسى : (بل وعرفت له بعض الأشعار) .

ويعرف اهتمام الادريسي بعلم النبات ومشاركته فيه من تأليفه
لكتاب « الجامع لصفات أشتات النبات » . ومنه نسخة مصورة
في معهد المخطوطات التابع للجامعة العربية ، وقد ضمنه — كما
في تعريف الفهرس — ذكر أنواع المفردات من الأشجار والثمار
والحشائش والازهار والحيوانات والمعادن ، وتفسير معجم
أسمائها بالسريالية واليونانية والفارسية واللاتينية والبربرية .
وقد أشار في مقدمته الى أنه قد رتب جميع أسماء النبات التي
ذكرها على حروف أبجد هوز ... وليس عندنا ما يدل على زمان
تأليف هذا الكتاب ومكانه . فقد يكون ألفه في صقلية ، وقد
يكون ألفه بعد مغادرته لها عائدا الى وطنه « سبنة » . ويؤكد
كراتشكوفسكى أن الادريسي مدين بمعارفه في الصيدلة والنبات
والمعرفة بأسمائها الأجنبية الى اقامته في صقلية حيث كان التراث
اليوناني البيزنطى لا يزال على قيد الحياة . ولم يكن
كراتشكوفسكى مبتكرا لهذا الاستنباط ، ولكنه نقله عن
« الدوميللى » المستشرق الايطالى الذى يستنتج أن الادريسي
(يبرهن على دراية عميقة بالاصطلاحات البيزنطية « الاغريقية »
التي يميزها تماما عن الاصطلاحات الاغريقية القديمة « اليونانية » .
وبديهي أن هذه الدقائق ذات علاقة بإقامة الادريسي الطويلة في

صقلية ، حيث كانت الاغريقية لا تزال لغة الكلام الدارج عند قسم
من السكان (١) .

وينسب المستشرق « الدوميللي » الى الادريسي كتابا في
الصيدلة ، ويقول عنه انه مبدوء بمقدمة عامة تتسم بطابع البحث
في النباتات ، وقد كشف عنه أخيرا في مخطوط بمكتبة في
استنبول . ولكنه لم يشتمل الا على النصف الأول من الكتاب ،
ويذكر ميللي ان العالم مكس مايرهوف قد ترجم بعض مقتبسات
منه ، وقدم فكرة عامة عن الكتاب كله في دراسة لعلم النبات
العام والصيدلة عند الادريسي ، والحق اننا لا ندرى علاقة
هذا الكتاب بكتاب « الجامع لصفات أشتات النبات » ، فقد
يكونان شيئا واحدا . ولعل من باحثينا الأفاضل من يكشف لنا
سر هذه المسألة .

ولا يعد الادريسي متخصصا في الطب وان كان فيه مقلدا
خطوات من سبقوه . ويشير كراتشكوفسكى الى هذه الناحية
عند الشريف الادريسي . ومن الطريف ان ابن أبي أصيبعة صاحب
كتاب « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » قد ذكر الشريف
الادريسي في كتابه على أنه من الأطباء الذين شملهم كتابه ،
وأسماء « الشريف محمد بن محمد الحسنى » ، فلم يذكره باسم
« الشريف الادريسي » المشهور به ، وذكر له كتابا عنوانه

(١) العلم عند العرب : لالدوميللي . ص ٣٩٠ من الترجمة العربية .

« الأدوية المفردة » (١) ، ووصف الرجل بأنه كان فاضلا عالما بقوى الأدوية المفردة ومنافعها ومنابتها وأعيانها . ولم يذكر له من الكتب غير هذا الكتاب ، ولم يشر مطلقا الى مكانه في علم الجغرافية ولا الى كتابه « نزهة المشتاق » . ولعله اختار له من مصنفاته كتابا يتصل بالطب الذي هو موضوع كتاب « عيون الأنبياء » ، فلاءم بين المؤلفات وبين موضوع كتابه في طبقات الأطباء ، كما هو شأنه في أغلب التراجم التي دونها للأطباء ، فلم يختار من مؤلفاتهم غالبا الا ما يتصل بالطب . ويظهر ان كتاب « الأدوية المفردة » من المخطوطات التي أضاعها الزمان حتى اليوم . ولعل نسخة خطية منه ترقد في خزانة مغلقة أو تحت قبو مظلم ولكن الحجاب لم يرفع عنها بعد . وقد ذكر المستشرق « بالنشيا » كتاب (٢) « الأدوية المفردة » للشريف الإدريسي ، وقال عنه ان ابن سعيد ذكره ، وأفاد منه ابن البيطار صاحب « المفردات » .

(١) عيون الانبياء لابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٥٢ .

(٢) تاريخ الفكر الاندلسي ص ٣١٣ .

الإدريسي بين الجاهل والإصافي

على الرغم من المكانة العلمية العظيمة في الجغرافية التي يتمتع بها الشريف الإدريسي بين الأوربيين ، وعلى الرغم من الشهرة التي حظى بها في أوساط المستشرقين والباحثين الأجانب ، فإنه لم يأخذ بين مؤرخي العرب وباحثيهم مكانه الذي يستحقه ، ولم يتمتع بينهم بالشهرة التي يستأهلها . فإن كثيرا من المصادر العربية التي جاءت بعد القرن السادس الهجري — أى القرن الذى عاش ومات فيه — لم تشر إليه ولم تتحدث عنه ، ولم تترجم له ، وكان الرجل لم يملأ عين الزمان بتلك المنجزات الجغرافية العظيمة التي أتمها . وتتج من هذا الإهمال أن معلوماتنا عن الإدريسي قليلة جدا واننا نتعب أنفسنا كثيرا حين نحاول البحث عن ترجمة له في المصادر القديمة .

ومن أعجب ملاحظتنا على إغفال اسم الإدريسي أن مؤرخا جليلا كالمقرئى صاحب « الخطط » المشهورة وغيرها من المؤلفات

الجليلة لم يذكر اسمه وهو يشير الى كتابه « نزهة المشتاق » في الفصل الذى عنوانه « ذكر مخرج النيل وانبعائه » ، فلم يذكر اسم الادريسي مطلقا ، بل قال : (وقال فى كتابه نزهة المشتاق الى اختراق الآفاق) ، ولا يعود الضمير فى : قال على مذكور قبل هذا ولكنه حذف اسم مؤلف النزهة ، اما تعمدنا للاغفال من جهة ، أو اتكالا على أن اسم صاحب النزهة معروف مشهور من جهة أخرى . ولا نسيء الظن بالمقرئ الى حد اتهامه باهمال اسم الادريسي وتعمد اسقاطه . ولكنها على كل حال ظاهرة تلفت النظر.

ولم ينفرد المقرئ وحده بأسقاط اسم الشريف الأدريسى فى معرض الحديث عن كتابه نزهة المشتاق ، فأنا نجد مؤرخا جليلا آخر هو الأمام السيوطى صاحب « حسن المجاورة فى تاريخ مصر والقاهرة » وغيره من المصنفات العديدة النافعة يسقط اسم الشريف الأدريسى فى خلال الفصل الذى عنوانه « أثر متصل الإسناد فى أمر النيل » ، فيقول : (وذكر صاحب كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) ، ويضن السيوطى هنا بذكر اسم الادريسي أو لقبه كماضن من قبل المقرئ عليه بالذكر ..

ولكننا من ناحية أخرى نجد مؤرخنا الكبير ابن خلدون — فى خلال الكلام عن « تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا » — يذكر كتاب نزهة المشتاق ثم يصنفه بأنه الكتاب (الذى ألفه العلوى

الأدريسى الحمودى (١) لملك صقلية من الأفرنج ، وهو رجار بن رجار عند ما كان نازلا عليه بصقلية ، بعد خروج صقلية من امارة مالقة ، وكان تأليفه للكتاب فى منتصف المائة السادسة) . وابن خلدون منصف للرجل بعض الاصناف ، فلم يضمن عليه بذكر اسمه ، ولا بحديث قصير عنه يعرف القارىء به ..

ويشير مؤرخنا ابن خلدون الى الشريف الأدريسى مرة أخرى وهو يتحدث عن البحار والأنهار فيقول : (وقد ذكر ذلك كله بطليموس فى كتابه ، والشريف فى كتابه رجار) . ثم يذكره مرة ثالثة فى معرض حديثه عن « الأقليم الأول » فيقول : (وقال صاحب كتاب رجار) وان كان لم يذكر الاسم اكتفاء بأنه ذكره قبل ذلك ، وأصبح كتاب رجار معروفا بأنه كتاب « نزهة المشتاق » للأدريسى .

ولم يدع المستشرق كراتشكوفسكى ظاهرة اهتمام ابن خلدون بالأدريسى وكتابه « نزهة المشتاق » دون أن يشير إليها ، فذكر أن المصدرين الأساسيين لابن خلدون فى كلامه عن الجغرافية هما بطليموس والأدريسى ، وقد صرح ابن خلدون بذلك فى خلال ذلك الفصل .

(١) ذكر الدكتور على عبد الواحد والى فى تحقيقه لمقدمة ابن خلدون لفظ الحمودى هكذا : الحمودى بزيادة ميم قبل الحاء ، وصوابه الحمودى نسبة الى نبي حمود الادارسة الذين منهم الشريف الادريسي .

والحق أن الأدريسى لقي بعض الانصاف والتقدير والاهتمام عند مؤرخ أديب شاعر من رجال القرن الثامن الهجرى هو صلاح الدين الصفدى الذى أفرد الأدريسى بترجمة لا بأس بها فى كتابه « الوافى بالوفيات » ح ١ ص ١٦٤ جمع فيها أمثلة من شعره . كما أنه تحدث عنه مرة أخرى وعن كتابه نزهة المشتاق وعن الكرة الأرضية التى صنعها ، فى خلال ترجمته لروجر الثانى ملك صقلية فى حرف الرءاء .

وأعجب ما صادفنا فى اغفال الأدريسى هو ما وجدناه فى كتاب ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء فقد ذكره على انه من الأطباء لا من المشتغلين بعلم الجغرافية وذكر له كتابا فى الأدوية (١) المفردة ، ولم يذكره باسمه المشهور المعروف لدينا حتى نهتدى اليه بأيسر نظر ، بل ذكره باسم (الشريف محمد بن محمد الحسنى) ، وذكر انه يلقب بلقب « العالى بالله » .

وقد لفتت هذه الظاهرة من اغفال الأدريسى وإهماله أنظار كثرة من الباحثين . وهذا كراثشكوفسكى يصرح فى دهشة أن مؤلفات الشريف الأدريسى ظلت مغسورة الذكر فى القرون التالية (٢) .

وعلى الرغم من ظاهرة اغفال الأدريسى وتجاهله عند المؤلفين

(١) عيون الانباء ، فى طبقات الأطباء ، ج ٢ ص ٥٢ .

(٢) تاريخ الادب الجغرافى العربى ج ١ ص ٢٩١ .

العرب القدماء فقد أفاد منه ورجع إليه وأخذ عنه بعض المصنفين. ولكننا لا ندري سببا لأغفال ياقوت الحموي له مع اشتراكهما في ميدان جغرافي واحد . فياقوت مؤلف « معجم البلدان » وهو معجم جغرافي جليل ، وكان اسم الأدريسى وآثاره في علم الجغرافية مظنة الوجود فيه ، ولكن ياقوتا تركه وكأنه لا يعلم عنه شيئا على الإطلاق .

وقد أثار هذا الإهمال العجيب للأدريسى محاولات لمعرفة سبب هذا الموقف الغريب . حتى لقد بلغ الأمر بالمستشرق كاترمير الفرنسى أن يصرح بأن المسلمين لم يكونوا راضين عن اتصال الأدريسى بملك نصرانى مثل روجر الثانى ، ودخوله فى خدمته . وقد نشر هذا رأى فى بحث قيم لكاترمير (١) فى مجلة العلماء مجلد سنة ١٨٤٣ م ، ونقله الدكتور حسين مؤنس فى دراسته عن الشريف .

ويذكر المستشرق كراثشكوفسكى سببا آخر لأغفال أمر الأدريسى عند الباحثين العرب ، فيقرر أنه ربما كان السبب فى هذا الإهمال والتجاهل ، الموقف السلبي الذى وقفه ممثلو المدرسة الرياضية من منهج الأدريسى . على أن كراثشكوفسكى لم يفته الإشارة الى السبب الأول الذى ذكره كاترمير ، وهو أن

(١) هو المستشرق الفرنسى Quatre Mere المنوفى سنة ١٨٥٢ وهو تلميذ « دى ساسي » ، وقد أصبح امام الاستشراق بعده .

الأدريسى كان يعمل ببلاط ملك مسيحي ، بل رفع اليه مؤلفه
يمتدحه في افتتاحيته . وقد يكون في هذا الموقف حمل للدوائر
السنية على أن تعد الرجل مارقا (١) . وكذلك الدكتور زكي محمد
حسن لم يفته أن يشير الى ظاهرة تجاهل الأدريسى عند المؤلفين
العرب ، وردد ما قاله بعض المستشرقين من أنهم فعلوا ذلك
لإسرافه في مدح رجار ، ولانصافه المسيحيين في صقلية الى أبعد
حد ، في وقت كان المسيحيون فيه يشنون على المسلمين الحروب
الصليبية الشعواء ، أو يعملون على طردهم من الأندلس . ولكن
الدكتور زكي محمد حسن لا يقبل هذا التعليل ويرفضه قائلًا انه
لا يقوم على أساس متين ، (لأن شكوانا في شأن ضياع سيرة
الأدريسى تصلح أيضا لسيرة كثير من سائر الجغرافيين المسلمين
الذين لم يتصلوا بالمسيحيين ولم يسرفوا في مدحهم) (٢) .

ومن المؤلفين العرب الذين نقلوا من الأدريسى أو أشاروا اليه
والإشارات سريعة ، أو استعملوا مصنفاته في تأليفهم ابن سعيد
المغربى المتوفى سنة ٦٧٣ هـ ، وأبو الفداء المؤرخ الجغرافى المتوفى
سنة ٧٣٣ هـ ، والأكفانى المصرى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ ، وابن
الوردى ، المتوفى سنة ٨٦١ هـ ، وابن دقمق المؤرخ المتوفى
سنة ٨٠٩ هـ ، وليون (٣) الأفريقى المتوفى سنة ١٥٥٢ م ،

(١) تاريخ الادب الجغرافى العربى ج ١ ص ٢٩٢ .

(٢) الرحالة المسلمون : لوكى محمد حسن ص ٦٧ .

(٣) هو العربى الحسن بن محمد الوزان الذى اضطر لاعتناق المسيحية

واستمرى نظر النابا ليون العاشر ، وسمى ليون الأفريقى .

والحميرى صاحب « الروض المعطار » المتوفى سنة ٩٠٠ هـ ، وابن
اياس المؤرخ المتوفى سنة ٩٣٠ هـ ، ومحمود بن مقديش
الصفاقسى التونسى المتوفى سنة ١٢٣٣ هـ — سنة ١٨١٨ م .
وبعض هؤلاء المؤلفين قد تعرض بالنقد الخفيف أو الشديد
للأدريسى ، فالطبيب المصرى الأكفانى يقول فى كتابه « ارشاد
القاصد الى أسنى المقاصد » ما يأتى : (وكتاب نزهة المشتاق
فى اختراق الآفاق فيه مخالفة لقسمة الأقاليم ، فان مؤلفه
— يعنى الأدريسى — وان كان عارفا بالمسالك والممالك ، لجوبه
الآفاق ، فانه عرى من علم هيئة الأفلاك) .

أما ابن عبد المنعم الحميرى صاحب « الروض المعطار » ،
فقد نقد الأدريسى نقدا شديدا ، كما نقد « معجم البلدان »
لياقوت الحموى . ولكنه على الرغم من نقده للأدريسى فإنه ينقل
عنه كثيرا ويأخذ منه . والحميرى لا يذكر فى نقله اسم الأدريسى
ولا اسم كتابه نزهة المشتاق ، ولكن المقابلة بين نصوص كتاب
« الروض المعطار » وكتاب نزهة المشتاق تؤكد لنا تشابه العبارات
مما يؤكد لنا عملية النقل الواضحة . وقد تتبعنا كتاب « صفة
جزيرة الأندلس » وهو المنتخبات من الروض المعطار للحميرى
بتحقيق المستشرق بروفنسال فوجدت آثار الأخذ والنقل عن
الأدريسى واضحة فى صفحات ٢ — ١٦ — ١٩ — ١٧٦ — ١٣٠
— ١٣١ — ١٣٢ .

ويؤكد لنا المستشرق فولرز (١) ان ابن دقماق نقل عن
الادريسي كما نقل عن الكندي وابن حوقل والقضاعي ، وابن
زولاق .

ويبدو أن المؤرخ ابن أياس — بما اشتهر عنه من النقل عن
سبقه — قد نقل كثيرا من نصوص الأدريسي . ويشير الى هذا
المستشرق الايطالي آماري ، ويستظهر أن ابن أياس ربما كان قد
رجع الى مسودة من كتاب الادريسي غير معروفة لنا . أما المؤرخ
ابن الوردي المتوفى سنة ٨٦١ هـ فقد أفاد من الأدريسي في خلال
كلامه على صقلية وفلسطين . وابن الوردي هذا هو الملقب بسراج
الدين ، وهو غير قريبه وسابقه عمر بن الوردي الملقب بزين الدين
والمعروف بالشعر والأدب ، وصاحب اللامية المشهورة التي مطلعها:

اعتزل ذكر الأغاني والغزل وقل الفصل ، وجانب من هزل

وقد توفي ابن الوردي الشاعر هذا في سنة ٧٤٩ هـ . ومن
عجب أن تشابه اسمه مع اسم ابن الوردي صاحب « خريدة
العجائب ، وفريدة الغرائب » قد أوقع كثيرا من المؤرخين العرب
والأجانب في الخلط بين الرجلين .

(١) هو K. Vollers المستشرق النمساوي المتوفى سنة ١٩٠٩ وقد

اهتم بابن دقماق وكتابه .

ولعل من قبيل استكمال المصادر العربية التي تحدثت عن الأدريسى أو ترجمت له في القديم أن لا يفوتنا هنا ذكر العماد الأصفهاني صاحب الجريدة المعروفة باسم (جريدة القصر ، وجريدة أهل العصر) ، والمتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، فقد ترجم للأدريسى ترجمة وجيزة وقال عنه : (محمد بن محمد يعرف بابن الشيرى القرطبي . معظم ما يذكره ابن بشرون في المختار من الأندلسيين رواية عنه ، ويذكر أنه لقيه في مدينة صقلية . وقد صنف لملكها رجار الأفرنجي في مسالك الأرض وممالكها كتابا كبيرا اسمه نزهة المشتاق) (١) . ولقب الشيرى هنا غريب . وقد جاء تحقيقه في الفصل الذي كتبناه عن موجز سيرة الشريف .

وغير قليل عدد المؤلفين العرب القدماء الذين أغفلوا اسم الأدريسى وتجاهلوا الإشارة إليه . وليس هنا مجال سرد أسمائهم . ولكن الطريف أن المستشرق الفرنسي دي سلان قد أورد أسمائهم في معرض حديثه عن الترجمة الفرنسية التي صنعها « جويير » الفرنسي لكتاب « نزهة المشتاق » . وقد أشار دي سلان الى أن هؤلاء المؤلفين قصدوا اغفال ذكر أى شئ عن الشريف الأدريسى ، مع أن الدلائل والقرائن تشير الى امكان معرفتهم به ١

(١) ومن الانصاف أيضا ان نقول ان حاجي خليفة صاحب كشف الظنون قد ذكر نزهة المشتاق في كتابه و ترجم لصاحبه الأدريسى ترجمة وجيزة ، وان كان لم يذكر لنا تاريخ وفاته كما ذكره مع المؤلفين .

الاهتمامات الغربية بالشريف الإدريسي

في الوقت الذي أغفل فيه العرب علما كبيرا من علمائهم في الجغرافية وعمل الخرائط وأدب الرحلات ، نرى الأوربيين قد شغلوا بهذا الرجل شغلا عظيما ، فنشروا آثاره ، وترجموها الى لغاتهم ، وأعادوا نشر خرائطه ومصوراته الجغرافية بتحقيق جديد ، ودرسوا جوانبه المتعددة ، ووازنوا بينه وبين من سبقه من الجغرافيين وخاصة بطليموس ، وتحدثوا عن القيمة العلمية لأقاليم أوربا كفنلندة والبلطيق وألمانيا والبلقان والأندلس ، وأوصافه لأقاليم آسيا وأفريقية . ومنهم من تجاوز الحديث عنه وعن جهوده في علم الجغرافية الى مشاركته في الصيدلة وعلم النبات ، كما فعل المستشرق الألماني مايرهوف .

ونلاحظ من تتبعنا الشديد لما كتب عن الإدريسي ، وما كشف.

من جوانبه أن المستشرقين الألمان كانوا أكثر الأوربيين عدداً في الاهتمام بهذا الرجل . وهي ظاهرة تلفت النظر ، وتؤكد مدى اهتمام الألمان بهذه الناحية من الجغرافية عند العرب . وقد نشر المستشرق الألماني زييولد المتوفى سنة ١٩٢١ بحثاً ضافياً عن الأدريسى في مجلة الاستشراق المشهورة Z.D.M.G. سنة ١٩٠٩ ، كما حرر الفصل الخاص به في دائرة المعارف الإسلامية . ويبدو من كتاباته أنه اطلع على كل ما كتب عن الأدريسى حتى عصره .

أما المستشرق الألماني جيلد مايستر (١) المتوفى سنة ١٨٩٠ م فقد نشر جزءاً من كتاب نزهة المشتاق ، وهو الجزء الخاص بالشام وفلسطين . واتجه المستشرق الباحث كونراد ميلر المتوفى سنة ١٩٣٣ الى خريطة الأدريسى فحاول أن يعرف مدى تأثيره على بعض مصوري الخرائط الأوربيين وخاصة مارينو سانودو ، التي نشرها فيسكونثي سنة ١٣٢٠ م . وقد أشار المستشرق الدوميلي الى الجهد الذي بذله كونراد ميلر في امدادنا بطبعة كاملة لخرائط الأدريسى نشرت في شتوتجارت ما بين عامي ١٩٢٦ ، ١٩٣١ ، كما أنه قدم لنا فوق ذلك نصاً طريفاً للشرح يشتمل على عرض

(١) هو Gildemeister المتوفى سنة ١٨٩٠ ، له اهتمامات كثيرة بمروج الذهب للمسعودي واحسن التقاسيم للمقدسي ، ونزهة المشتاق الشريف الأدريسى .

هو توغرافي لوئاثق لاتزال موجودة ، كما يشتمل على بعض تغييرات تناسب القارىء الأوربى (١) . ويذكر جرجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية اسم «روزن ميلر» ويشير الى أنه طبع وصف الشام وفلسطين فى مدينة ليبسك سنة ١٨٢٨ . وقد حاولت أن أهتدى الى روزن ميلر هذا والى اسهامه فى نشر ما يخص الشام وفلسطين من نزهة المشتاق فلم أوفق ، ولم تدلنى المصادر الكثيرة الأوربية والعربية على هذه المشاركة ولا على اسم روزن ميلر . ويشير كراتشكوفسكى الى أن « هارتمان » (٢) قد وضع اللجنة الأولى للاقتصار على دراسات محددة خاصة بكل قطر من الأقطار التى تحدث عنها الأدريسى ، وذلك حين نشر بحثه الخاص بأفريقية عند الأدريسى . وهذا النوع من التخصص هو الذى اتجه اليه ناشرو نزهة المشتاق فيما بعد . حين أخذ كل منهم بلدا معيننا من البلدان التى ذكرها الأدريسى ونشر دراسة عنه مرفقة غالبا بالنص العربى . ومن المفيد أن نذكر هنا أن هارتمان هذا هو : ج — م — هارتمان المتوفى سنة ١٨٢٧ م ومن رجال الاستشراق الألمانى فى القرن التاسع عشر ، وهو غير « ريتشارد هارتمان » الألمانى أيضا ولم يكن له صلة بالأدريسى ولا آثاره .

وقد أشار المؤرخ الألمانى « جوزيف آشباخ » الى مشاركة

(١) العلم عند العرب . ص ٣٩٤

(٢) J.M. Hartmann المستشرق الألمانى المتوفى سنة ١٨٢٧ .

هارتمان القديم في نشر قطع من كتاب الأدريسى ، ولكنه لم يقل لنا عن أى الأقطار كانت هذه القطع (١) . وقد اشترك المستشرق الألماني (٢) « هنريخ » المولود سنة ١٩١١ في حركة التخصص في الدراسات عن الأدريسى وأوصافه للأقطار الخاصة ، فنشر دراسة خاصة بوصف الأدريسى لألمانيا في كتابه نزهة المشتاق . ويشير كراتشكوفسكى الى هذه الدراسة المفيدة ذات الهدف المتواضع . أما المستشرق ماكس مايرهوف (٣) المتوفى سنة ١٩٤٥ فقد اهتم بالأدريسى من حيث هو عالم بالصيدلة والنبات ، لا من حيث مكائته في علم الجغرافيا ، فنشر دراسة رصينة عنوانها « الصيدلة والنباتات عند الأدريسى » نشرها بمجلة الرياضيات والطبيعات التي تصدر في ليزج سنة ١٩٣٠ . وقد قرر مايرهوف أن كتاب الأدريسى في الأدوية لا يخلو من بعض الأهمية ، ولو أنه لا يمكن وضعه في مرتبة واحدة مع المصنفات العربية الممتازة في هذا الميدان . أما العالم الألماني جوتتر فقد اهتم بالأدريسى فصنع عنه بحثا يتناول مكائته في الجغرافية العربية ، كما يتناول بالدراسة علماء المواردنة اللبنايين الذين أخرجوا كتبه أو كان لهم فضل

(١) تاريخ الاندلس في عصر المرابطين والموحدين : يوسف اشباح ج ٢ ص ٢٦٠ .

(٢) هو Hoenerbach الذي اشتغل بالتدريس في جامعات ألمانيا جامعة كاليفورنيا . وكان له اهتمامات بالزجل الاندلسي .

(٣) هو M. Meyerhof المتوفى سنة ١٩٤٥ ، وكان طبيبا عالميا في السيون ، وتمت كتابته في الطب العربي مرجعا هاما .

السبق في ترجمتها الى غير العربية ، وقد أشار الى هذا البحث المستشرق الايطالى ميلى ، كما أشار اليه الأستاذ نجيب العقيقى فى كتابه الجليل « المستشرقون » .

واذا انتقلنا من الألمانين الذين اهتموا بالأدريسى الى رجال الاستشراق الأسباني فأننا نجد منهم حفنة كريمة ، منهم كونده ، وسافدرا ، وبلاسكويث ، وبالنثيا . أما كونده المتوفى سنة ١٨٢٠ فقد نشر جزءا من نزهة المشتاق ، وهو الجزء الخاص بوصف الأدريسى للأندلس . وقد نشر الأصل العربى مع ترجمته له الى الأسبانية سنة ١٧٩٩ ، وجمع الى النص تعليقات وملاحظات مفيدة . أما سافدرا المتوفى سنة ١٩١٢ فقد نشر من نزهة المشتاق الجزء الخاص بأسبانيا ، مع بعض التصحيحات والتعديلات لما فات دوزى ، ودى جويه أن يذكره فى طبعتهما . وقد نشر سافدرا النص العربى مع ترجمة له بالأسبانية فى مدريد سنة ١٨٨١ . ولم يشر جرجى زيدان الى عمل سافدرا ، ولكن أشار اليه يوسف أليان سرقيس فى معجمه ، والأستاذ نجيب العقيقى فى كتابه « المستشرقون » .

أما أنطونيو بلاسكويث (١) فقد ترجم الى الأسبانية القسم

(١) هو المستشرق الاسباني A. Blazquez وله دراسات اسبانية مغربية ويوجد اسمه فى بعض المؤلفات العربية المعاصرة هكذا : بلا تكث .

الخاص بالأندلس في نزهة المشتاق ونشره بمديرية سنة ١٩٠١ ،
وقد أسرار ألدو ميللي ، ونجيب العقيقى الى هذه الترجمة .
وهناك مستشرق اسباني هو آنخل جونثالث (١) بالنشيا المتوفى
سنة ١٩٤٩ ، واذا كان هذا الرجل لم يصر دراسة خاصة
بالأدريسى ، ولم يسهم في نشر جزء من كتابه نزهة المشتاق ، فإنه
قد تناوله بترجمة جيدة وتاريخ لحياته في كتابه المشهور « تاريخ
الفكر الأندلسي » الذي ترجمه الدكتور حسين مؤنس ، ولا شك
أن هذه السيرة هي مشاركة كريمة من بالنشيا في تقدير الأدريسى.

ويصادفنا في ميدان الاستشراق الروسى ثلاثة من الرجال
اهتموا بالأدريسى من نواحي مختلفة ، ونظروا اليه من زوايا
مباينة ، فنرى فيكتور بيليايف (٢) المولود سنة ١٩٠٤ ، ينشر
بحثا في سنة ١٩٥٧ عن آثار الأدريسى الجغرافية ، كما نرى
مدنيكوف (٣) المتوفى سنة ١٩١٨ يشترك في نشر وترجمة القسم

(١) هو Angel G. Palencia أكبر رجال الاستشراق الاسبانيين
المعاصرين . واهتماماته كثيرة بالادب الاسباني العربى يرجع اليها فى كتاب
(المستشرقون) ج ٢ ص ٥٩٨ للاستاذ نجيب العقيقى .

(٢) هو Victor Beliaev المستشرق الروسى المعاصر ، وهو
تلميذ كراتشكوفسكى واشغفل بالتعليم حيناً ، وبإدارة قسم المخطوطات العربية
بجامعة ليننجراد ، ويمد اليوم شيخ المتخصصين فى المخطوطات العربية فى الاتحاد
السوفييتى .

(٣) هو المستشرق N. Myadnikove وهو مهتم بفلسطين وبيت
القدس .

الخاص بفلسطين والشام من كتاب الأدريسى ، وقد جاء بحثه هذا في خلال كتابه الجليل : « فلسطين منذ الفتح العربى حتى الحروب الصليبية » واستند فيه الى المصادر العربية ، ومنها بالطبع كتاب نزهة المشتاق . أما قمة المستشرقين الروس في الاهتمام بالأدريسى فهو العلامة أغناطيوس كراتشكوفسكى (١) المتوفى سنة ١٩٥١ . وقد أخرج لنا أعظم كتاب عن الدراسات الجغرافية عند العرب ، وعنوانه « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » في مجلدين ضخمين . وقد تناول الأدريسى في الجزء الأول من كتابه في ست عشرة صفحة من القطع الكبير ، ووفى الكلام عنه بما لا موضع معه لزيادة ، فكان من أوفى ماكتب عن الأدريسى عند المستشرقين .

ولم يحجم رجال الاستشراق الفنلندى عن ميدان المشاركة في الاهتمام بالأدريسى وجغرافيته ، فبرى أ . م . تالجرين المتوفى سنة ١٩٤٥ ينشر بماونة زميله الفنلندى تالجرين توليو (٢) وصف فنلاند وبلدان البلطيق الشرقية كما جاء عند الأدريسى في نزهة المشتاق . وقد نشرنا المتن العربى الخاص بهذا الأقليم وترجمته

(١) هو العالم المشهور I. Kratchkovski وهو مؤرخ حجة للأدب والتاريخ والجغرافيا عند العرب ، واجمع العلماء والمستشرقون في الارض كلها على الاعجاب به والثناء عليه .

(٢) هو المستشرق الفنلندى Tallgren-Tulio وهو غير زميله وسميه A.M. Tallgren المتوفى سنة ١٩٤٥ على حين توفى تالجرين توليو سنة ١٩٤١ . وقد خسرهما الاستشراق الفنلندى المعاصر .

والحرايط المتعلقة به والدراسة الضرورية له في أكثر من ١٥٠ صفحة من مجلة الدراسات الشرقية سنة ١٩٣٠ . أما الزميل تالجرين تولى فقد استقل وحده بدراسة جيدة عن « الجديد من الأدريسى » — أو الأدريسى من جديد — متنا وترجمة ودراسة في ٢٤٢ صفحة من مجلة الدراسات الشرقية سنة ١٩٣٦ ، أى بعد ستة أعوام من البحث الأول المشترك بينه وبين زميله أ . م . تالجرين . وقد توفي هذا الباحث سنة ١٩٤١ ، أى قبل زميله السابق بأربع سنوات .

ولم يتخلف الاستشراق الفرنسى عن الأسهام فى الاهتمام بالأدريسى ، وفى هذا الميدان نسجل اسم المستشرق جوير المتوفى سنة ١٨٤٧ ، وقد كان من علماء الحملة الفرنسية على مصر ، وتعد مشاركته فى تقدير الأدريسى بترجمة كتابه نزهة المشتاق ترجمة كاملة لمتن الكتاب كله . وقد ظلت هذه الترجمة تحظى بتقدير العلماء الى أن كشف النقد لها أنها لا تفى بمطالب العلم ، وأنها غير أمينة على الأصل . وأول من نبه الأذهان الى أخطاء النقل والترجمة فيها المستشرقان دوزى ودى جويه . ومن يومها رسخ الاعتقاد عند عدد من العلماء بأنها ترجمة فرنسية ليس من المستطاع الاعتماد عليها فى أية دراسة جدية . ويؤكد زيبولد فى مادة الأدريسى بدائرة المعارف الاسلامية أنها ترجمة كثيرة الخطأ ، كما يقرر ذلك صاحب معجم المطبوعات العربية والمعربة ، والأمير شكيب

أرسـلان ، والدكتور حسين فوزى ، والمستشرق الايطالى
الدومينيكى . وقد أورد الأمير شكيب؛ بعض نماذج من عيوب
الترجمة تركها لمن يريد سعة الاطلاع فى كتاب « الحـلل
السندسية » . أما المستشرقان جبريل فيران ، وزميله ديمومبين
فقد سبق لهما أن أعلنـا عن ترجمة فرنسية لنزهة المشتاق ، ولكن
وفاة أولهما قد قدرت لهذا المشروع ألا يظهر .

وتبدو مشاركة الاستشراق الايطالى فى الاهتمام بالأدريسي
فيما ظهر من أول طبعة عربية لكتاب نزهة المشتاق فى مطبعة
المديتشي المشهورة بروما سنة ١٥٩٢ م . وهى تعد واحدة من
أقدم الطبعات الأوروبية التى ظهرت لهذا الكتاب بالحروف العربية.
وهذه المشاركة الأولى من ايطاليا فى احياء أكبر أثر جغرافى
للأدريسي قد أعقبتها مشاركات أخرى ، منها ما صنعه المستشرق
الايطالى فورلانى (١) المولود سنة ١٨٨٥ من نشره لجزء من كتاب
روجر للأدريسي ، وهو الكتاب المعروف « بنزهة المشتاق » . أما
المستشرق (٢) سكيا باريللى المتوفى سنة ١٩١٩ فقد اشترك مع
مواطنه آمارى فى نشر بعض الأجزاء من كتاب نزهة المشتاق متنا
وترجمة وتعليقا ، وقد نشر ذلك العمل فى رومة منذ سنة ١٨٧٨ الى
سنة ١٨٨٣ م . واشترك ديفور مع آمارى فى نشر خريطة لجزيرة

(١) هو G. Furlani وهو عضو فى مجامع علمية كثيرة

(٢) هو C. Schiaparelli تلميذ آمارى وخليفته على كرسى الرئيسة

فى فلورنسا .

صقلية استنادا الى الأدريسى والى جغرافىي العرب ، ونشرت
بباريس سنة ١٨٩٥ . ولا بد أن نشير هنا الى أن القسم الذى نشره
وترجمه آمارى وسكيا باريللى من كتاب الأدريسى هو القسم
الخاص بايطاليا . وهو مثال من التخصص فى نشر نزهة المشتاق
بلدا بلدا ، بدلا من نشره كاملا . وتبدو مشاركة المستشرق
الايطالى « ألدوميللى » فى الاهتمام بالأدريسى فيما كتبه عنه فى
كتابه الشهير « العلم عند العرب » ، وهو الكتاب الذى ترجمه
المرحومان الدكتوران محمد يوسف موسى ، وعبد الحليم النجار ،
وقد أثار ميللى جوانب من البحث عن الأدريسى ومشاركته فى علم
الجغرافيا عند العرب تذكرنا بما صنعه المستشرق الأسباني بالنشيا
فى هذا السبيل . ولم تقل هولندة وعلماء الاستشراق فيها اهتماما
بالأدريسى وآثاره عن بقية علماء البلاد الأوربية الأخرى ، وتحضرنا
فى هذا المجال جهود العالمين دوزى ، ودى جويه المتوفيين سنتى
١٨٨٣ م ، ١٩٠٩ على الولا ، فقد نشرنا بالاشتراك الجزء الخاص
بأفريقية والأندلس من كتاب نزهة المشتاق للأدريسى معتمدين
على مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس ، وقد جمع الكتاب بين
النص العربى والترجمة الفرنسية مع التعليقات والشروح والفهارس
وطبع فى ليدن سنة ١٨٦٦ .

ودخل مجال الاهتمام بالأدريسى مستشرقان نمسويان أحدهما
توماشك المتوفى سنة ١٩٠١ . وقد درس القسم الخاص من كتاب

الأدريسى ببلاد البلقان ، وحلله تحليلًا استنبط منه حالة التجارة وطرقها في ذلك العصر . ويصف كراتشكوفسكى دراسة توماشك هذه لشبه جزيرة البلقان عند الأدريسى (١) بأنها تحليل ممتاز .

أما المستشرق النمساوى الآخر فهو موجيك (٢) Mzik وهو تشيكى الأصل ، ولا نعرف عن حياته أكثر من أنه عين بمجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٥٦ ، وقد نشر مكتبة المؤرخين والجغرافيين العرب من مخطوطات المكتبة الوطنية بفينا ، متنا وترجمة ، سنة ١٩٢٦ — سنة ١٩٣٠ ، وذكر صاحب كتاب « المستشرقون » طائفة لا بأس بها من آثاره . وله في مجلة الآداب الشرقية بحث عن الأدريسى وبطليموس نشر سنة ١٩١٢ . وقد حاول أن يرد في بحثه المسائل التى أخذها الأدريسى عن بطليموس . بل قال ان الأدريسى فى معلوماته عن وسط أفريقيا يعتمد اعتمادا كلياً على بطليموس ، بحيث يصبح من العسير اعتباره مصدراً أصلياً مستقلاً فيما يختص بهذه المناطق .

وأسهم الاستشراق السويدى فى ميدان الاهتمام بالأدريسى

(١) تاريخ الادب الجغرافى العربى ص ٢٨٧ .

(١) هو : W. Tomaschek المستشرق الجغرافى النمساوى المتولى سنة ١٩٠١ .

(٢) هو : H. Von. Mzik وقد نشر مكتبة المؤرخين والجغرافيين العرب

بمستشرق واحد لا غير هو براندل الذي نشر بحثا عنوانه «سورية
وفلسطين من خلال وصف الأديسي لهما» ، وقد أشار
كراشكوفسكى الى هذه المشاركة اشارة عابرة ، كما ذكرها
الأستاذ نجيب العقيقى صاحب كتاب «المستشرقون» فى هامش
الكتاب لا فى صلبه .

من المجردين في الإسلام

ان من يتصفح كتاب « المجددون في الاسلام » للمرحوم الشيخ عبد المتعال الصعيدي لا يتوقع أن يرى اسم الشريف الأدرسي بين أعلام الأمة الاسلامية الذين يترجم لهم المؤلف في هذا الكتاب . فالكتاب يوحى بأن الأعلام المشتغل عليهم هم رجال الدين والفقه والشريعة والعلوم الاسلامية الذين أدخلوا على الدين في مختلف العصور تجديدات تتلاءم مع تطورات الزمان . وخلعوا عليه ثيابا جديدة بدل الجمود على ثوب قديم لا يلائم العصر الجديد . ولكن القارئ لهذا الكتاب الطريف المفيد يرى فيه أسماء اسلامية بعيدة عن مجالات الدراسة الشرعية ، والمباحث الدينية ، والموضوعات الفقهية ، والاصلاحات التي ينادى بها رجال الدين في كل زمن ليخلصوا الاسلام من الشوائب التي علقت به ، أو دخلت عليه . نعم ا يحار القارئ حين يرى في كتاب « المجددون في الاسلام » أسماء الخليفة الواصل بالله العباسي ،

والمتهدي العباسي ، والرازي الفيلسوف ، والفارابي المعلم الثاني
والشيخ الرئيس ابن سينا ، وأبي العلاء المعري ، وابن رشد
الفيلسوف الأندلسي ، والشريف الأدرسي ، والسلطان سليمان
القانوني ، والشاه عباس الصفوي ، ونادر شاه ملك إيران في
القرن الثاني عشر الهجري ، ومحمد علي مؤسس الأسرة العلوية
في مصر ، ومدحت باشا ، ومصطفى كمال أتاتورك ، وعبد العزيز
آل سعود .

ولقائل أن يقول ، ولسائل أن يسأل ما شأن الشاه عباس
الصفوي ، ومحمد علي ، وأتاتورك ، والخليفة الواثق العباسي ،
والشريف الأدرسي وبقية رجال السياسة والعلم الطبيعي والإدارة
بالتجديد في الإسلام .

ولو قرأنا مقدمة الأستاذ عبد المتعال الصعيدي لكتابه لوجدنا
فيها الجواب عن هذا السؤال حاضرا . فأن هذا العالم المتحرر
الواسع الأفق يرى أن الدين ليس العبادة فقط ، ولا شيء فيه
من عمل الدنيا ، ولا شيء فيه مما ينهض بالمسلمين في دنياهم من
علم أو صناعة أو زراعة أو تجارة ، وما إليها مما يحفظ على
المسلمين دنياهم ولا يجعلهم في الدنيا أقل نجاحا من غيرهم ، حتى
لا يطمع فيهم طامع ، ولا يستبيح حماهم عدو ، فيملك عليهم أمرهم ،
ويضيع عليهم دينهم ودنياهم معا .

ويرى الأستاذ الصعیدی أنه لو فهم الدين هذا الفهم الديني وحده لم يكن هناك في الاسلام شيء من التجديد ، لأن العبادات لا تتغير ولا تتجدد بتجدد الأزمان ، فالصلاة هي الصلاة لا تتغير فيها ، وكذلك بقية العبادات لا تخضع لتغيير ولا تجديد . ويرى الأستاذ الصعیدی أن الاسلام دين جامع لصالح الدنيا والآخرة ، فلا يقتصر الأمر فيه على ما يصلح الآخرة وحدها ، بل يدخل فيه ما يصلح الدنيا أيضا . والاسلام ليس دين عبادة فقط ، ولا دين مطلقوس دينية وحدها ، وإنما هو نهضة دينية ومدنية معا ، أريد بها النهوض بالعرب الذين جاء النبي العربي منهم أولا ، لينهضوا بالبشرية كلها ثانيا .

وعلى هذا الأساس بنى المؤلف الواعي بحثه في تاريخ المجددين في الاسلام ، وأقامه وفهمه على أنه تاريخ نهوض المسلمين في أمور دنياهم ، قبل أن يكون تاريخ نهوضهم في أمور آخراتهم . وعلى هذا الأساس اختار الأستاذ الصعیدی المجددين في الاسلام منذ القرن الأول الى وقتنا هذا .

ولم يكن الأستاذ الصعیدی ابن بجدة هذا الرأي الناضج في التجديد الاسلامي ولا أول من كتب فيه من وجهة النظر هذه ، بل سبقه اليه المرحوم السيد محمد رشيد رضا حين كتب مقدمة كتابه الضخم في « تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده » ، فقال : إنما كان المجددون يبعثون بحسب الحاجة الى التجديد لما

أبلى الناس من لباس الدين ، وهدموا من بنيان العدل بين الناس ، فكان الإمام عمر بن عبد العزيز مجددا في القرن الثاني لما أبلى قومهم بنواميه وأخلقوا ، وما مزقوا بالشقاق وعرقوا . وكان الإمام أحمد بن حنبل مجددا في القرن الثالث ، لما أخلق (١) بعض بنى العباس من لباس السنة ، ورشاد سلف الأمة ، باتباع ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وتحكيم الآراء النظرية في صفات الله وما ورد في عالم الغيب ، بالقياس على ما يتعارض في عالم الشهادة .. ثم أخذ السيد محمد رشيد رضا يعد طائفة من المجددين بالمفهوم الديني ، الى أن خلاص الى الحديث عن مجددين آخرين للجهاد الحربي بالدفاع عن الاسلام أو تجديد ملكه وفتح البلاد له ، وأقامة أركان العمران فيه . وهؤلاء المجددون بهذا المفهوم كثيرون في الشرق والغرب والوسط ، ورجاله معروفون ، كبعض خلفاء العباسيين ، والأمويين . ومنهم من جمع بين أنواع من التجديد كالسلطان صلاح الدين الأيوبي مجلى الصليبيين عن البلاد المقدسة وغيرها ، ومزيل الدولة الفاطمية الباطنية مصر ، وكمحمد علي المجدد في الإدارة والعمران بمصر ، والأمير عبد القادر الجزائري بطل الجهاد في الجزائر ضد المستعمر الفرنسي ، وكمصطفى رشيد وفؤاد باشا وغالى باشا من مجددي السياسة في تركيا .

(١) لما أخلق ، أى سبب ما أبلاه بعض العباسيين من مراسم السنة .

ومن هنا دخل الشريف الأدرسي في المجددين في الاسلام على أن له في علم الجغرافية أصالة وإشكارات جعلته من أعظم الجغرافيين العرب .

ويبدي الأستاذ عبد المتعال الصعيدي عجبه من أن حاجي خليفة صاحب كتاب «كشف الظنون» لم يذكر شيئا من تجديدات الأدرسي في علم الجغرافية مما شهد له به علماء أوربا (ومما شهدوا له به أيضا من أنه كان أول من سمى باسم الماليز أحد الشعوب الساكنة في جزيرة جاوة . وقد ذكر ما بين هذه الجزيرة وجزيرة مدغشقر من العلاقات ووحدة الجنس ، فدل بهذا على أن مصوره الجغرافي وصل الى تبسيط عظيم في المحيط الهندي لم يصل اليه الجغرافيون قبله ..) (١) .

ولهذا لا ندهش اذا وجدنا في كتاب «المجددون في الاسلام» ترجمة جليظة للشريف الأدرسي لم تصادف مثلها في المصنفات الحديثة التي كان ينتظر منها أن تتحدث عن هذا الجغرافي العربي الكبير بأسهاب وتقدير ..

(١) المجددون في الاسلام : لعبد المتعال الصعيدي ص ٢٣١ .

الإدريسي في كفة الميزان

على الرغم من المكانة العلمية الكبيرة والتقدير العظيم الذي ظفر به الشريف الإدريسي بين علماء المشرق والمغرب في القديم والحديث ، فإن هناك بعض النقدرات التي وجهت إليه ، والمآخذ العلمية التي أخذت عليه . والحق أننا ما كنا ننتظر أن ينعقد الأجماع على تقدير الشريف الإدريسي ، دون أن يوجه إليه مأخذ أو نقد . فأننا لا يجوز أن نغفل العصر الذي عاش فيه الرجل ، والظروف التي أملت به ، والحالة العلمية التي كانت سائدة في أوروبا في ذلك الحين .

وحسب الشريف الإدريسي فضلا أن كفة حسناته في ميدان العلوم الجغرافية رجحت كفة المآخذ عليه بكثير . وحسب العالم شرفا وتقديرا أن تعد معاييه ، وتحصى مآخذة ، فإن تلك المآخذ دليل على أن الرجل لم يأل جهدا ، ولم يدخر وسعا في سبيل العمل الذي نهض به .

والحق أن التقدير العظيم الذي ناله الشريف الأدريسى — وخاصة من الأوربيين — يجب أن يشفع بحق لبعض المآخذ التي أخذها عليه بعض ناقديه . كما أن تلك المآخذ — مهما يكن من أمرها — لا يجوز أن تبرقع وجه المحاسن التي قام بها الأدريسى في ميدان الجغرافية ، ولا أن تبخس قيمتها الحقيقية التي اعترف له بها المنصفون والعدول .

وكثيرة هي الآراء الحسنة التي أبدتها جمهرة من الباحثين الأجانب في تقدير العمل الجغرافي العظيم الذي قام به الشريف الأدريسى ، وأسهم به في حقل الجغرافية العالمية اسهاما لا ينكره الا جحود أو جهول .

ويكفى أن نشير هنا الى بعض تلك التقديرات العادلة التي أملاها فهم سليم لقيمة العمل الذي قام به الشريف في كتابه الخالد (نزهة المشتاق ، في اختراق الآفاق) وفي مصوراته وخرائطه التي أضافت جديدا الى العلم في عصر الشريف . ومازلنا نذكر شهادة المستشرق الكبير « آمارى » الذي يقول عن كتاب نزهة المشتاق انه (أفضل رسالة في الجغرافيا وصلتنا عن العصور الوسطى) . وقد ردد هذه الشهادة في تقدير كبير المستشرق المشهور نلليانو ، كما اعتمد عليها (رايت) في تقديراته .

ومالنا نذهب بعيدا وهذا هو « البارون دى سلان » المستشرق

الأيرلندي الأصل الفرنسي الجنسية وتلميذ المستشرق المشهور « دى ساسى » ، والمتوفى سنة ١٨٧٨ م ، يقول عن كتاب « نزهة المشتاق » للشريف الأدريسى انه كتاب (لا يمكن أن يوازن به أى كتاب جغرافى سابق له . وهناك بعض أجزاء من المعمورة لا يزال هذا الكتاب دليل المؤرخ الجغرافى فى الأمور المتعلقة بها ...) . ولشهادة البارون دى سسلان قيمة كبيرة ، لأن هذا الرجل له اهتمامات بالجغرافية والبلدانيات والمسالك عند العرب ، بالإضافة الى اهتماماته الكثيرة فى الشعر والأدب والتاريخ . ويكفى أنه شارك فى نشر كتاب أبى الفداء ، كما نشر كتاب عبدالله القرطبى فى كشف المسالك والممالك ، ونشر نبذة من رحلة ابن جبير الكنانى الأندلسى . وقد قلب هذا الباحث الدءوب بين يديه كثيرا من المخطوطات والمصنفات العربية وعرف قيمتها ، ووازن بعضها ببعض فى الموضوع الواحد . ومن هنا كان لرأيه قيمته ، فهو ممن لا يبدون الآراء اعتباطا ، أو يصدرون الأحكام جزافا ، ولكنه يحكم عن معرفة وحسن تقدير ..

أما المستشرق الألمانى زيولد — أو سيبولد كما وردت فى بعض المؤلفات العربية — فقد أشرنا الى اسهامه فى تحرير الفصل الخاص بالشريف الأدريسى فى «دائرة المعارف الإسلامية» . وللرجل رأى حسن فى الأدريسى وكتابه « نزهة المشتاق » ، حيث يقول : « ان الدراسات العربية فى حاجة ماسة الى نشر كتاب الأدريسى ،

الذى يعد أعظم مصنفات العصور الوسطى فى الجغرافيا ، مع ترجمته وشرحه وعمل خرائط هامة له يعتمد فى ذلك على المخطوطات المعروفة لنا الآن فى مكتبات باريس ، وأكسفورد وأستانبول ...)

ولن نعدم تقديرا جميلا للشريف الأدريسى وكتابه « نزهة المشتاق » عند المستشرق الهولندى كرامرس الذى خلف « فنسنت » على كرسى الأدب العربى فى جامعة ليدين بهولندة . والذى توفى سنة ١٩٥١ م ، فقد رأى هذا الباحث بحق (أنه ليس هناك مؤلف حفظ لنا معطيات وافرة ذات قيمة كبرى عن بلاد الغرب — أى أوربة والأندلس والمغرب — كما فعل الأدريسى . وقد مر وقت كان هو فيه الممثل الوحيد للأدب الجغرافى العربى) . ولو أخذنا نتتبع آراء العلماء والباحثين ورجال الاستشراق فى الشريف الأدريسى وقيمتة وقيمة كتابه (نزهة المشتاق) لطلال أمامنا أمد القول واتسع ، ولكننا نكتفى بما سقناه قبل هذا ، كما نحيل على فصل لاحق من كتابنا هذا عنوانه (الأدريسى فى تقدير الغربيين والعرب) يخرج منه القارئ الكريم بحفنة من التقديرات والآراء الصريحة فى القيمة الجغرافية الكبرى للشريف الأدريسى وآثاره فى علم الجغرافيا .

ولن يصرفنا هذا التقدير الكريم لهذا العالم العربى عن أن نعرض بعض ما قيل فيه من آراء تمس قيمة عمله العظيم . وقد

يكون ناقدوه على حق فيما قالوه ، ولكنه على كل حال نقد لا ينقص من قدر الشريف قيد أنملة ، ولا يؤثر في القيمة العلمية له ولمشاركاته في الجغرافية .

وإذا كنا نسجل في هذا الفصل — ونحن نقوم الرجل في كفة الميزان — بعض ما وجه إليه من نقد ، فليس ذلك منا تشهيرا بالرجل ، ولا اذاعة لما أخذ عليه ، ولكن ليقف القارئ على ما قيل في الشريف الأدرسي سواء أكان له أم عليه ، فإن نشر المحاسن وحدها قد يؤول على أنه تواطؤ على اخفاء المساويء ، وهي صفة لا تليق بالعلم والبحث . ومادام النقد بعيدا عن الهوى والتعصب والجنف في الحكم فإن الحقيقة تكسب من ورائه خيرا كثيرا . ولم يسلم الشريف الأدرسي حتى من نقد بعض علماء الإسلام القدامى والمحدثين . فهذا هو الطبيب المصري محمد بن ابراهيم ابن ساعد الأنصاري المعروف بابن الأكتفاني ، وصاحب كتاب « ارشاد القاصد ، الى أسنى المقاصد » و « نخب الذخائر ، في أحوال الجواهر » وصاحب كتاب « روض الألبا ، في أخبار الأطباء » الذي اختصر به كتاب « عيون الأنباء » لابن أبي أصيبعة ، والمتوفى سنة ٧٤٩ هـ — كما في « الدرر الكامنة » ، « والبدر الطالع » ، و « الأعلام » لخير الدين الزركلي — يقول في كتابه « ارشاد القاصد » وفي القسم الخاص بالحديث عن الجغرافية : (وكتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، فيه مخالفة لقسمة الأقاليم ، فإن

مؤلفه — يعنى الشريف الأدريسى — وإن كان عارفاً بالمسالك والممالك لجوبه الآفاق ، فإنه عرى من علم هيئة الأفلاك) . وقد نقل المستشرق أغناطيوس كراتشكوفسكى فى هذا الصدد ما ترتب على هذا النقد من قول بعض الباحثين الأوربيين : (من هذا يتضح لنا أن محاولة الأدريسى للتقريب بين الجغرافيا الوصفية والفلكية قد عرفت فى الشرق بوصفها محاولة فاشلة تماما كما عرفها العلم الحديث ...)

ومالقى الشريف الأدريسى نقداً أشد ولا تقديراً أبخس ، من شخص شرقى مسلم مثلما لقى من الأمير (يوسف كمال) الذى كان له بعض المعاناة فى الخرائط والمصورات العربية كما كان له بعض الاهتمام بها . فقد نفى نفياً باتاً وجود أى تأثير مزعوم لنص البكرى ولخارطات الشريف الأدريسى على أوروبا فى العصر الوسيط بل ذهب فى النفى خطوات أبعد من هذا فاعتبر أى زعم من هذا القبيل ضرباً من الهذيان العلمى . وقد أخذ كراتشكوفسكى هذه الفكرة الظالمة فزاد فيها ، زاعماً أنه إذا كان هنا تأثير على أوروبا فإنه دون ريب لم يكن للشريف الأدريسى نفسه ، بل للوسط الصقلى الذى أمضى فيه الأدريسى زهرة عمره . ويحق لنا أن نرد عن الشريف بعض ما تجنى به عليه ، فما قيمة هذا الوسط الصقلى لو لم تظهر فيه آثار الشريف الأدريسى وجهوده العلمية واضحة للعيان ؟

واذا كان الأمير يوسف كمال قد ظلم الأدريسى بأن نفى عنه كل تأثير على أوروبا في تقدم الجغرافية في العصر الوسيط ، فإن هناك مستشرقاً فرنسياً من رجال القرن التاسع عشر قد ظلم الأدريسى ظلماً كبيراً بأن حكم عليه حكماً قاسياً حين قال : (والأدريسى — في بعض النقاط — قد ساعد بالأحرى على تفهقر العلم بدلاً من تقدمه ..) وهو حكم جائر من عالم مستشرق مثل « ج.ت. رينو » الذي تتلمذ على « دى ساسي » واقتفى أثره ، وتوفي سنة ١٨٦٧ م . ولا ندرى كيف يقال إن الأدريسى ساعد على تفهقر العلم بدلاً من تقدمه ، مع هذه الشهادات العالية التي أدلى بها كثير من المستشرقين ؟ وعلى الرغم مما في كلام « رينو » من جور على قيمة الشريف الأدريسى ، فإن الرجل نفسه قد عاد ليلطف من حدة حملته قائلاً : (غير أن مصنفه — ويعنى به كتاب نزهة المشتاق — يمثل صرحاً هائلاً في ميدان الجغرافيا ..) . ويخيل إلينا أنه ليس هناك تناقض بين أول كلام « رينو » وآخره ، فإن هناك بعض المآخذ على كتاب الشريف الأدريسى وطريقته في تحديد المسافات والأبعاد ، ولكنها مآخذ لا تؤثر قليلاً ولا كثيراً في قيمة ذلك الصرح الهائل الذي شبه به (رينو) كتاب نزهة المشتاق .

وقد حاول المستشرق النمساوي « توماشك » أن يزن

الشريف الأدريسى بميزان صحيح ، وأن لا يجوز عليه في الحكم أو يخسه بعض حقه . فهو حين يقرر أنه من غير المستطاع الاعتماد على الشريف الأدريسى فيما يتعلق بتحديد المسافات والأبعاد بوجه خاص ، وحين يقرر أن معطيات الشريف الأدريسى عن الجغرافية الطبيعية للبلقان طفيفة ، فإنه في الوقت نفسه يؤكد أن فكرة الأدريسى التي كونها في كتابه عن أهم المراكز والطرق التجارية برومانيا ، وذلك باستماعه الى روايات التجار من العرب واليهود والأغريق والفرنجة ، تمثل محاولة مبكرة لم يستطع أن يقوم بها أحد في بيزنطة في ذلك العهد ، بالرغم من مجاورة بلادهم لتلك الأصقاع . ويؤكد « توماشك » أنها محاولة من الشريف الأدريسى لن تفقد قيمتها على مر الزمن . ولم ينكر توماشك أن الشريف الأدريسى أعطانا معلومات جغرافية ضئيلة عن طبيعة بلاد البلقان ، ولكنه قدم لنا معلومات غزيرة في مجال التاريخ .

وكذلك فعل المستشرق « بارتولد » عضو مجمع العلوم الروسى والرئيس الدائم للجنة المستشرقين فيه والمتوفى سنة ١٩٣٠ ، فقد رأى في كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » محاولة للتنظيم والترتيب ، ولكن على حساب الدقة والتثبت ..

وقد يختلف التقدير للشريف الأدريسى في موضوع معين عند اثنين من الباحثين . فقد ذكر المستشرق النمساوى مويك

(أن الأدريسى إنما يعتمد اعتمادا كلياً على بطليموس في معلوماته عن داخل أفريقيا ، بحيث يضحى من العسير اعتباره مصدراً مستقلاً فيما يختص بتلك المناطق) ، على حين أن الباحثة الجغرافية المعاصر « كمبسل » يقول في كتابه (علم الجغرافية في العصر الوسيط) المطبوع بلندن سنة ١٩٣٨ : (ان الأدريسى في وصفه لأفريقية لم يترسم خطى بطليموس دون وعى ، فوصفه لمجرى النيل الغربى - أى نهر النيجر قد وكدت صحته الاكتشافات الجغرافية في القرن التاسع عشر . وهو على معرفة جيدة بالتجارة مع داخل أفريقيا ، وقد أورد أسماء المراكز التي ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية في ذلك الوقت ، مثل غانة ، وسلا ، وتكرور) .

وقد التمس المستشرق الأسباني « بالنشيا » الأعذار للشريف الأدريسى فيما وقع في كتابه « نزهة المشتاق » من أخطاء ، فالتمس منا أنه لا ينبغي أن يغيب عن بالنا أن الشريف الأدريسى كتب كتابه هذا في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي ، وأن موت الملك روجار الصقلي وما أعقبه من القلاقل في دولة النورمان بصقلية حالت بين الأدريسى وبين أن يدخل على كتابه التعديلات الأخيرة الواجبة ، وأكد « بالنشيا » أن الكتاب حافل بالمعلومات الصحيحة في الغالب ، ومادته وافرة عن البلاد الأوربية التي تسكنها شعوب نصرانية .

ومع ذلك فقد عاب « بالثيا » على كتاب (نزهة المشتاق)
للشريف الأدرسي أنه يضم بعض أطراف من الخرافات التي كانت
أوسع ما تكون انتشارا في عصره . وقد تناولنا الحديث عن هذه
القضية في الفصل الذي عنوانه « بين الواقع والأساطير » .

الأدريسي في تقدير الغربيين والعرب

قد يكون من المناسب هنا أن نسجل بعض الآراء التي أبدتها لفيف من المستشرقين والباحثين والعلماء العرب والأجانب في معرض تقدير الأدريسي وتقدير آثاره في تقدم العلوم الجغرافية ومدى إسهامه في ذلك السبيل .

✽ يقول العلامة كارا دي فو صاحب كتاب « مفكرو الاسلام » وغيره من الكتب العظيمة التي يعرفها المشتغلون بالفلسفة الإسلامية : (ان الأدريسي استعمل ملاحظاته الشخصية ، زيادة على الانتفاع بملاحظات معاصريه وأعمال المؤلفين قبله . ولا شك أن ما كتبه ووصف به البلاد الغربية كان أحسن ما كتب عنها ، لأنه أعطانا في هذا الصدد أبحاثا من الطبقة الأولى) .

✽ وقال البارون دى سسلان المستشرق الفرنسى من بحث نشره فى عدد أبريل سنة ١٨٤١ من المجلة الآسيوية الفرنسية :
(ان كتاب الأدريسى لا يمكن أن يوازن به أى كتاب جغرافى سابق له ، وان ثمة بعض أجزاء من المعمورة لا يزال هذا الكتاب دليل المؤرخ والجغرافى فى الأمور المتصلة بها) .

✽ وقال جوستاف لوبون المفكر الفرنسى المشهور ، وصاحب « حضارات الهند » ، و « حضارة العرب » وغيرهما من الكتب العظيمة : (وأشهر جغرافى العرب هو الأدريسى . ومن كتب الأدريسى التى ترجمت الى اللاتينية ، تعلمت أوربة علم الجغرافية فى القرون الوسطى) .

✽ وقال العلامة سيديو صاحب كتاب « تاريخ العرب العام » : (ويعد الأدريسى أول نقطة اتصال بين الجغرافية اللاتينية ، وجغرافية المدارس الاسلامية ..) .

✽ وقال جوتيه البحاثة الفرنسى : (ان الشريف الأدريسى الجغرافى كان أستاذ الجغرافيا الذى علم أوربا هذا العلم لا بطليموس ، ودام معلما لها مدة ثلاثة قرون . ولم يكن لأوربا مصور للعالم الا مارسمه الأدريسى ، وهو خلاصة علوم العرب فى هذا الفن . ولم يقع الأدريسى فى الأغلاط التى وقع فيها بطليموس فى هذا الباب) .

✽ وقال المستشرق الايطالى الدومينيلى : (.. وهذا العالم الجغرافى الذى ربما كان أعظم جغرافى العالم الاسلامى ، كان على وجه الخصوص ذا ملكة ممتازة فى رسم الخرائط) .

✽ وقال العالم الباحث جون رايت : (ولاشك أن كتاب الأدريسى أتى ببعض العناصر لتنمية فن الملاحة فى صقلية ، ومنها — بواسطة الملاحة فى جنوة — الى قطلونية والبرتغال) .

✽ وقال كامبل : (ان إحدى السمات العظيمة فى كتاب الأدريسى هى أننا لانرى المؤلف موافقا لآراء بطليموس على طول الخط دون تحفظ ، وانما كان يستهدى الأدريسى بمعارفه الشخصية ، وتجاربه المتنوعة كرحالة كثير الأسفار) .

✽ ويقول فيه المستشرق الأسبانى بالنشيا : (ان الكتاب حافل بالمعلومات الصحيحة فى الغالب ، ومادته وافرة عن البلاد الأوربية التى تسكنها شعوب نصرانية) .

✽ وقال فيه العالم رينو وقد جمع فيه بين اظهار المحاسن والمساوىء : (والأدريسى فى بعض النقاط قد ساعد بالأحرى على تفهقر العلم بدلا من تقدمه ، غير أن مصنفه على وجه العموم يمثل صرحا هائلا فى ميدان الجغرافيا يشبه فى هذا الصدد مؤلف استرابون) .

✽ ويقول فيه كراتشكوفسكى المستشرق الروسى :

(.. ورغمما عن كل هذه التحفظات فإن مؤلفات الأدريسى في الجغرافيا تمثل بكل تأكيد ظاهرة ممتازة في محيط الأدب الجغرافي العربي خاصة ، وفي النشاط العلمي لجميع العصور الوسطى عامة ..) .

وفوق هذا كان الأدريسى موضع اهتمام ودراسة من المسلمين غير العرب ، فاهتم به حافظ أبرو الأيراني ، كما اهتم الأتراك به وبأعادة نشر كتابه متنا وترجمة وتعليقا ، كما اهتم حاجي خليفة صاحب كشف الظنون وذكر كتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » وعرف بالأدريسى تعريفا وجيزا ، وأشار الى اختصار بعضهم لهذا الكتاب . أما حيدر بامات صاحب كتاب « مجالى الاسلام » ، والذي عرف في التأليف الفرنسى باسم « جورج ريفوار » وهو مسلم صحيح الاسلام ، فقد أشار الى الأدريسى وعرف به فى ايجاز ، وأوجز الحكم عليه قائلا : (وكان — الأدريسى — أول من جعل ارتباطا بين جغرافية اللاتين ، وجغرافية المدارس الاسلامية) ، وهو هنا ناقل لرأى العلامة سيدو الذى سبق ذكره . ويرى الباحث الهندى نفيس أحمد أن كتاب الأدريسى — بالتأكيد — هو أكبر نموذج بارز لانصهار المعلومات الجغرافية القديمة مع المعلومات المتجددة .

هذه هي نماذج من آراء بعض الأوروبيين والمسلمين غير العرب في الأدرسي وكتابه وجهوده في علم الجغرافيا . أما العرب القدامى والمحدثون فلا داعي لذكر أسمائهم وآرائهم هنا في هذا الفصل ، لأنها مدونة على مدى كتابنا كله في أكثر من موضع ، وهي تؤكد تيقظ العرب اليوم لأنصاف هذا العالم الجغرافي العظيم .

المراجع والمصادر

مرتبة وفق حروف الهجاء

- ١ - أثر العرب في الحضارة الأوروبية :
عباس محمود العقاد ، دار المعارف ، مصر ١٩٤٦ .
- ٢ - أثر العرب والاسلام في النهضة الأوروبية :
جماعة من الأساندة المختصين ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧٠ .
- ٣ - الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى :
أبو العباس الناصري السلاوي ، الدار البيضاء المغرب ١٩٥٦ .
- ٤ - الاسلام والحضارة العربية :
محمد كرد علي ، القاهرة ١٩٣٤ .
- ٥ - الأعلام :
خير الدين الزركلي ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨ .
- ٦ - أعلام من الاسكندرية :
نقولا بوسف ، الاسكندرية ١٩٦٩ .
- ٧ - البداية والنهاية :
ابن كثير الدمشقي ، مطبعة السعادة القاهرة ١٣٩٢ .
- ٨ - البيان المغرب ، في حلى المغرب :
ابن عذاري المراكشي ، مكتبة صادر ، بيروت ١٩٥٠ .

- ٩ - تاريخ الأدب الجغرافى العربى :
أغناطيوس كراتشوفسكى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ،
لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٣ .
- ١٠ - تاريخ آداب اللغة العربية :
جرجى زيدان ، الطبعة الأخيرة ، القاهرة سنة ١٩٥٩ .
- ١١ - تاريخ الأندلس فى عصر المرابطين والموحدين :
يوسف أشـسـباخ ، ترجمه محمد عبد الله عنـسان القاهرة
سنة ١٩٤٠ .
- ١٢ - تاريخ الحضارة الإسلامية :
بارتولد ، ترجمة حمزة طاهر ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٢
- ١٣ - تاريخ العرب العام :
سيديو ، ترجمة عادل زعيتـر ، القاهرة ١٩٤٨ .
- ١٤ - تاريخ العرب ، مطول :
الدكتور فيليب متى ، بيروت ١٩٤٩ .
- ١٥ - تاريخ الفكر الأندلسى :
بالنـشـيا ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ .
- ١٦ - تقدم العرب فى العلوم والصناعات :
عبد الله الجرارى ، القاهرة ١٩٦١ .
- ١٧ - جهود المسلمين فى الجغرافيا :
نفيـس أحمد ، ترجمة فتحى عثمان ، القاهرة .
- ١٨ - حديث السندباد القديم :
الدكتور حسين فوزى ، القاهرة ١٩٤٣ .

- ١٩ - **حسن المحاضرة :**
السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة
١٩٦٧ .
- ٢٠ - **حاضرة العرب :**
غوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة سنة ١٩٤٨
ط الثانية .
- ٢١ - **الحضارة العربية :**
جاك ريسلر ، الدار المصرية للتأليف والنشر سنة ١٩٦٦ .
- ٢٢ - **الحلل السندسية :**
الأمير شكيب أرسلان ، القاهرة ١٩٣٦ .
- ٢٣ - **خطط المقرئى :**
مطبعة النيل ، القاهرة ١٣٢٤ هـ .
- ٢٤ - **دائرة المعارف الإسلامية :**
الترجمة العربية ، القاهرة ١٩٣٣ .
- ٢٥ - **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى :**
الدكتور زكي محمد حسن ، القاهرة ١٩٤٥ .
- ٢٦ - **الرحلات :**
الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٦ .
- ٢٧ - **رحلة ابن جبير :**
تحقيق الدكتور حسين نصار ، دار مصر للطباعة ، القاهرة .
- ٢٨ - **الرواد :**
فؤاد صروف ، دار المقتطف ، القاهرة بدون تاريخ .

- ٢٩ - رواد الشرق العربى فى العصور الوسطى :
الدكتور نقولا زيادة ، القاهرة ١٩٤٣ .
- ٣٠ - الروض المعطار :
الحميرى ، منتخبات اختارها بروفنسال . القاهرة سنة ١٩٣٧
- ٣١ - ظهر الاسلام :
الدكتور أحمد أمين ج ٣ ، القاهرة .
- ٣٢ - العرب فى صقلية :
الدكتور احسان عباس ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٩ .
- ٣٣ - العرب والملاحه فى المحيط الهندى :
ج فضلو حورانى ، مكتبة الانجلو المصرية سنة ١٩٥٨ .
- ٣٤ - العلم عند العرب :
الدو ميلى ، دار القلم ، القاهرة سنة ١٩٦٢ .
- ٣٥ - العلوم عند العرب :
قدري حافظ طوقان ، مكتبة مصر بالفجامة ، القاهرة
سنة ١٩٥٦ .
- ٣٦ - عيون الأبناء ، فى طبقات الأطباء :
ابن أبى أصيبعة ، المطبعة الوهبية ، القاهرة سنة ١٨٨٢ .
- ٣٧ - فهرس المخطوطات المصورة ج ٤ :
فؤاد سيد ، معهد المخطوطات ، القاهرة ١٩٦٤ .
- ٣٨ - الكامل :
ابن الأثير ، المطبعة المنيرية ، القاهرة ١٣٥٧ هـ .
- ٣٩ - كشف الظنون :
حاجى خليفة ، مطبعة العالم ، استنبول سنة ١٣١١ هـ .

- ٤٠ - كنوز الأجداد :
محمد كرد علي ، مطبعة الترقى ، دمشق سنة ١٩٥٠ .
- ٤١ - مآثر العرب على الحضارة الأوروبية :
جلال مظهر ، القاهرة ١٩٦٠ .
- ٤٢ - مجالى الاسلام :
حيدر بامات ، ترجمه عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٥٦ .
- ٤٣ - مجاني الأدب :
الأب لويس شيخو اليسوعى ، بيروت .
- ٤٤ - المجددون فى الاسلام :
عبد المتعال الصمعيدي ، القاهرة ، مكتبة الآداب ،
بدون تاريخ .
- ٤٥ - المستشرقون :
نجيب العقيفى ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٤ .
- ٤٦ - معجم المطبوعات العربية والعربية :
يوسف أليان سركيس ، القاهرة سنة ١٩٢٨ .
- ٤٧ - معجم المؤلفين :
عمر رضا كحالة ، مطبعة الترقى ، دمشق ١٩٦١ .
- ٤٨ - مقدمه ابن خلدون :
تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافي ، القاهرة ١٩٥٧ .
- ٤٩ - الموسوعة العربية الميسرة :
الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦٥ .
- ٥٠ - النبوغ المغربى ، فى الأدب العربى :
عبد الله كنون ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت .

- ٥١ - نفع الطيب :
المقرى ، المطبعة الأزهرية المصرية ، القاهرة ١٣٠٢ هـ .
- ٥٢ - الوافى بالوفيات :
صلاح الدين الصفدى ج أ ، اشراف ديدرنخ ، استنبول .
- ٥٣ - وصف الهند وماجاورها من البلاد :
الادريسي ، تحقيق الدكتور مقبول احمد ، الهند ١٩٥٤ .

المجلات

- مجلة معهد المخطوطات التابع للجامعة العربية -
مجلة المجمع العلمى العراقى
مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمريد
مجلة عالم الفكر الكويتية عدد مارس سنة ١٩٧١

فهریس

الموضوع	صفحة
كلمة لا بد منها	٣
موجز حياة	٧
صقلية في عهد الأدریسی	١٥
الملك روجر الصقلی	٢٣
كيف عرف روجر الأدریسی	٣١
تحقیق المیلاد والوفاة	٤١
لمحات من مدينة سبتة	٥١
مع بعض معاصری الشریف الأدریسی	٦٣
كتاب نزهة المشتاق	٧١
مؤلفات أخرى	٧٩
خريطة الأدریسی ومصوراته الجغرافية	٨٥
كرة أرضية من الفضة	٩٥
بن الاصاله والنقل	١٠٥

الموضوع	الصفحة
المعاينة والمشاهدة	١١٧
منهج الأدريسى فى وصف البلاد	١٢٥
بين الواقع والأساطير	١٣٧
وصاف المدن	١٤٥
وصاف البحار	١٥٣
الأدريسى ورحلة المغررين	١٦١
أوروبا والأندلس وأفريقية عند الأدريسى	١٧١
جوانب متعددة من الأدريسى	١٨١
الأدريسى بين التجاهل والأنصاف	١٨٩
أهتـمـامـات الغربيين بالشريف الأدريسى	١٩٩
من المجددين فى الاسلام	٢١١
الأدريسى فى كفة الميزان	٢١٧
الأدريسى فى تقدير الغربيين والعرب	٢٢٧

وزارة التجارة
الرسمية المصرية العامة للتأليف والنشر

المركز الرئيسي ١١١٧ شارع كورنيش النيل - القاهرة - ج.ع.م.
تلهفون : ٧١٠٥٥ / ٧١٠٥٨ تلهفون : ٧١٠٥٥ / ٧١٠٥٨ تلهفون : ٧١٠٥٥ / ٧١٠٥٨

الإدارة العامة للتوزيع ١٧ شارع قصر النيل - القاهرة - ج.ع.م.
تلهفون : ٤٥٥٨٩ / ٤٧٤٣٦

مكتبات الفرع للتوزيع في ج.ع.م.م.

المساحرة

٣٦ شارع شريف ت. ٤٠١٢ ١٩ شارع ٢٦ يوليوس ت. ٥٥٠٢٢
٥ ميدان عراق ت. ٤٦٣٨٣ ٢٢ شارع الجمهورية ت. ٩١٤٢٢٣
١٣ شارع الميناء ت. ٢١١٨٧ الباب الأخضر بالحسين ت. ٩١٣٤٤٧
الاسكندرية ٤٩ شارع سعد رعلول ٢٢٩٢٥ الجزيرة : ١ ميدان البحيرة ت. ٨٩٨٣٩١
دمهور : ٠ شارع عبد السلام الشاذلي ٢٦١٥ المنيا : ٠ شارع ابن خضيب ت. ٤٤٥٤١
طنطا : ٠ ميدان الساعة ٢٥٩٤ اسوط : ٠ شارع الجمهورية ت. ٢٠٣٢٢
المحلة الكبرى : ٠ ميدان المحطة ٤٢٧٧ اسوان : ٠ السوق السباحي ت. ٢٩٣٠
المنصورة : ٠ أول شارع الثورة ٣٨٦٤

مراكز التوزيع خارج ج.ع.م.

لبنان : الشركة القومية للتوزيع - بيروت - شارع سوريا بناية أدباء صمدى وصالحه
العراق : الشركة القومية للتوزيع - بغداد - ميدان التحرير - محسار فاطمة

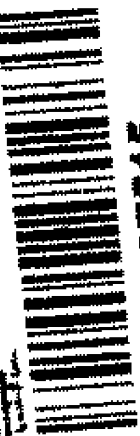
توكيلات وعملاء في ج.ع.م.

الكويت : وكالة المطبوعات ٢٧ شارع نهدي السلام والكوييت
الأردن : مكتبة المحض - عمان
ليبيا : محمود عارف الشويحي - طرابلس
الندونيسيا : عبد الله محمد السدروس - جاكرتا
تونس : الشركة التونسية للتوزيع ٥ شارع قرطاج - تونس
الجزائر : ٩٢ شارع دبلوش مراد بالحرار العاصمة
المغرب : المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع ٤٢ - ٤٤ الشارع الملكي - الاحاس -
الدار البيضاء

هولندا : مكتبة ريل - ليدن

المكتبة المصرية العامة للتأليف والنشر
في خدمة القارئ والقرآن

Library Alexandria



0397515

المكتبة المصرية العامة للكتاب والنشر

To: www.al-mostafa.com